ألعاب شريرة يلعبها الطيبون..

بقلم

أشرف سمير عدلي

ألعاب شريرة يلعبها الطيبون..

بقلم

أشرف سمير عدلي

ألعاب شريرة يلعبها الطيبون..

بطاقة الكتاب:
اسم الكتاب: ألعاب شريرة يلعبها الطيبون
اسم الكاتب: أشرف سمير عدلي
نوع الكتاب: رواية
عدد الصفحات: ١٥٢ صفحة
المقاس: ١٤ x ٢٠
رقم إيداع: ٢٠٢٠/٢٢٤٦٨م
الترقيم الدولي: 978-977-6736-29-0
الطبعة: الأولى، ٢٠٢٠م

رئيس مجلس الإدارة

مها المقداد

للتواصل والطلب من داخل أو خارج مصر:
00201129195867-00201033966291

الغلاف والتنسيق الداخلي والمراجعة

فريق دار المصرية السودانية الإماراتية للنشر والتوزيع

أقر المؤلف بأنه وحده صاحب الحقوق الفكرية للكتاب، وأنه يضمن للناشر عدم التعرض من الغير بخصوص الملكية الفكرية، كما صرح أن هذا الكتاب ليس في مضمونه ما يمنعه القانون، وأن الآراء والأفكار التي يتضمنها محتوى الكتاب تعبر عن فكر المؤلف فقط ولا يعبر عن رأى الناشر، ولا يوجد داخل الكتاب نقل أو استعارة بما قد يعرّض الناشر للمسؤولية القانونية.

فريق عمل
دار المصرية السودانية الإماراتية للنشر والتوزيع

تصميم الغلاف **إسلام عبدالحليم**

تنسيق داخلي **مها المقداد**

دار المصرية السودانية الإماراتية للنشر والتوزيع-مها المقداد

+201289024055

Mahaelmukdad@gmail.com

جاء في كتاب "المختصر في أمور الحياة".....

أنا الذي...

أحببتها.. تزوجتها.. لعنتها.. ثم نمت.

الليلة الأولى

المارد المحموم والمرأة الخشب

كانت عقارب الساعة الكلاسيكية، المثبتة فوق الحائط المقابل للسرير، تشير إلى الثانية بعد منتصف الليل.. انفتحت عينى عن أخرها، كأنما لم يضاجعها النوم هذه الليلة.. الضوء الخافت في حجرة النوم جعلنى أمعن النظر في هذه المرأة الممدة في السرير إلى جانبي، كعمود من المرمر دبت فيه الحياة.. بسرعة تفحصت ملامح وجهها.. أنها غريبة ولم أرها من قبل، ولكن كيف وهي نائمة بهذه الطريقة، مستريحة إلى السرير، الذي يحتضن جسدها العاري برفق كأم تحتضن صغيرتها لتنام هادئة ومطمئنة.

قفزتُ من الفراش، وكأنى تذكرت موعدًا حان وقته.. فتحت الباب بحذر حتى لا تستيقظ هذه الغريبة النائمة إلى جواري. وخرجت دون أن أدرك أنني أمشى حافيًا.. تسللت إلى السلم الداخلى الذي ينتهي في قلب البهو الكبير بالطابق الأرضي، أسفل السلم. في نهاية البهو، باب خشبي قديم، يبدو على غير وفاق مع الأثاث المرصوص بعناية وذوق كبير.. امتدت يدي إلى الباب.. دفعته برفق كأنني أدخل سرًا حتى لا يشعر بي من ينتظرون بالداخل.. صوت حشرجة الباب وهو ينفتح، يبدو كصوت قطيع من الخراف الجائعة.. أشعل هذا الصوت ألسنة النار في رأسي، وامتدت خيوط النور متسللة من البهو الكبير إلى داخل الحجرة المظلمة الخائفة، مثل امرأة وجدت مكبلة بقيودها في ليلة مظلمة.. أغلقت الباب من خلفى.

الحجرة الصغيرة بدأت تتسع.. الممرات الجانبية الضيقة، تظهر واحدة بعد الأخرى، وكأنها خرجت من الحائط المسحور لحجرة المخزن.. واحد من هذه الممرات ابتلعنى إلى داخل غرفة كبيرة ممتلئة عن أخرها، لم أتبين من محتوياتها شيئًا.. كان الضباب الكثيف يحجب حقيقة الأشياء الموجودة بالحجرة.. أشعر أن هذه الأشياء عبارة عن أجساد تحمل بين جوانبها طاقة الحياة.. بعضها يدفعنى إلى الخارج والبعض الآخر يجذبنى بعنف يكاد يكسر ضلوعي.. الألوان الرمادية والنحاسية الباهتة تكسو كل شيء تقريبًا في هذه الحجرة الداخلية.. الأدخنة الموجودة في نهاية الحجرة بدأت تتشكل.. أنها أياد تقترب وتبتعد.. أقدام بلا سيقان تتسلق الحائط.. الباب من خلفى ينغلق وينفتح، وفي كل مرة يحدث هذا، أسمع صوت أنين امرأة، يتقطع على أوتار حنجرة مجهدة، كأنما خافت أن يسمعها أحد.. الأقدام التي تسلقت الحائط عادت إلى أرض الحجرة.. الأيادي اقتربت منها.. الأنين المحبوس يهدأ لكنه موجود.. وجه امرأة يتشكل من الأدخنة الزرقاء التي توسطت الحجرة.. رجعت إلى الوراء بخطوات محمومة حتى التصقت بالحائط.. حاولت أن أمسك بأكرة الباب.. لكنها تحولت إلى قفل له أشواك حديدية، تركتْ آثارها الدامية على أصابعى النحيلة. رفعت عينى لأجد وجه المرأة الذي تشكل من أدخنة الحجرة يجذب إليه جسدًا جميلًا من الفراغ.. ما هذا؟.. أنها المرأة التي... فجأة انعقد لسانى من المفاجئة، ثم صرختُ قائلًا: أنها المرأة التي كانت تنام بجانبي.. أنها عمود المرمر الغريب الذي كان مستريحًا في سريرى.. أنها تبتسم لى، تريد أن تقول لي شيئا.. لم أنطق ببنت شفة.. التفتُ في محاولة جديدة إلى الباب، أجذبه دون أن أحدد مكان الأكرة.. لم أجد الباب.. ولم أجد أمامي سوى كتاب بحجم الحائط، كتب في منتصف صفحته البيضاء، بخط واضح هذه الكلمات، (خذها معك.. هذه المرأة من صناعتك أنت.. أنها كُتبت عليك.. إذا كنت

ستعود، فلتعد بها.. أو لتبقى هنا إلى الأبد.. ستبقى كقطعة من مادة باردة.. بألوان رمادية أو نحاسية باهتة).

اختفى الكتاب وظهرت المرأة فوق الحائط.. كانت تتحرك.. تقترب منى.. ثم تعود إلى الحائط.. مددت يدي إليها.. سحبت جسدها الناعم اللين.. جعلته يغوص بين ضلوعي.. وما أن اختفت المرأة بداخلى، حتى دبت في أرجلى طاقة تكفي جيشًا من الرجال، جعلتنى أنطلق بقوة في ممرات الغرفة المظلمة.. عقارب ساعة تدور بسرعة كبيرة.. رأيتها تدور حول الأرض.. أرقام السنوات تتساقط أمامي في ترتيب عكسي.. (٢٠١٦.. ٢٠١٥.. ٢٠٠١.. ١٩٨٨.. ١٩٨٠).. خرج من خلف أحد الصناديق الكبيرة الموجودة بالمخزن، طفل صغير بوجه رجل، صرخ في وجهي:

- ماذا تنتظر؟
- أجبته بغير اهتمام: وماذا أفعل؟
- خذها وأخرج.. ولا تنسَ أن تفعل ما تخبرك به.
- سألته: من هي التي تتكلم عنها؟
- أننى أتكلم عن المرأة التي قابلتها في الداخل، وجعلتها بين ضلوعك.. وفتحت لك الباب المغلق.. هل تريد أن تبقى هنا، مثل تلك القطع الرمادية والنحاسية الباهتة. (قالها بلهجة حادة)
- بخوف صرخت في وجهه: لا.. لا.. سوف أخرج.. الآن أخرج.

فتحت الباب الخشبي القديم الموجود أسفل السلم في قلب البهو الكبير.. وسقطت في غفوة لم أعرف كم دام زمنها.. لكنها مرت.

فى الصباح وجدت نفسى في الفراش أفرك عينىَّ، وأضحك من لا شيء.. نظرت إلى يمينى وإلى شمالى في السرير أفتش عن لا شيء؟ لا أعرف عن ماذا أفتش.. ربما كنت في حاجة إلى دليل على كل ما يدور برأسي لحظة إفاقتى.. كانت ملاءة السرير، مكومة بجانبي وكأنها عانت من ليلة قاسية حاولتْ نسيانها، فتكورت في خوف وخجل، لا يشجع أحدًا على محاولة فردها من جديد.

حملتُ جسدي الثقيل بصعوبة شديدة إلى خارج الفراش.. في هذه اللحظات، تذكرت الحوار الذي دار ذات يوم، بيني وبين أحد زملائى الذي كان يتحدث معي عن أناس يتسلقون الجبال المرتفعة في مسابقات التحدى، في محاولة مستميتة من أجل الفوز.. كان زميلى يشجعنى لأشارك في إحدى هذه المسابقات، فضحكت وقتها وقلت له أن أكبر تحدى بالنسبة لي هو ما أكابده من معاناة في الصراع الذي يتكرر كل صباح، عندما أحاول انتشال جسمي الثقيل من بين براثن الفراش، الذي غصتُ فيه كبقايا متروكة من زمن سحيق، على وعد بأن أعود إليه طواعية في المساء وأسلمه جسدي المتعب كرهينة ليست من حقها اختيار، أو ربما في ساعات الظهيرة وأنا مثقل بأتعابى من أجل الحصول على جرعات من الطاقة تساعدني على شحن ساعات إضافية من اليقظة البليدة.

ارتديت ملابسى بعد سلسلة محفوظة ومتكررة من الأفعال والطقوس التي أقوم بها كل صباح، مثلى مثل كثير من الناس الذين يلعنون روتين حياتهم، ثم يمارسونه عن طيب خاطر. خرجت على غير هدى، أصْفَحَ لافتات

المحلات وفاترينات الملابس التي تراقب المارة ولا تنتظر زيارتهم في هذه الساعة المبكرة من نهار اليوم.. فلم أقرر بعد إذا كنت سأذهب إلى مكتبي، أم أنني سأقضي بعض الساعات مترجلا في الطرقات بحثًا عن فكرة موضوع يصلح لتدريب الناس، ويجذبهم. فعملى مدرب للتنمية البشرية، يتطلب منى التفكير خارج الصندوق، وعندما تراوغنى الأفكار الجديدة، انقض عليها، وأمسكها من قرنيها، ولا أجعلها تنفلت. فهذه الأفكار هي التي تجذب الأوراق المالية من جيوب الرجال والنساء الذين يبحثون عن الوسائل والأساليب التي تساعدهم على مغالبة الحياة، من أجل حفنة لحظات من الرضى والسعادة.

فى هذا الصباح كانت الطرقات تستقبلنى بترحاب شديد، بينما كنت أعبر فوقها بخطوات راقصة، فأنا أعشق شكل شوارع وسط البلد في شهر أكتوبر، فصل الخريف، أجمل فصول السنة.. كان من المفروض أن نعلن هذا الفصل من السنة، فصلًا للحياة، وكفى على فصل الربيع، كل هذه الأزمنة الطويلة التي غنينا له، وشهدنا لروعة الطقس في أيامه. لقد تعلمنا في الكتب، أن في هذه الأيام تبلغ الزهور عمر النضج، وفيه تتزاوج الفراشات ضمن حفلات عرس رائعة.. لكني الآن أثق أن كل هذا ربما كان أكذوبة ورثناها عن جدَّنا السادس عشر. ونحن نعرف أن الأكذوبة إذا كررناها عدة مرات، فسوف يقبلها العقل على أنها حقيقة مؤكدة.

الناس تتدفق في الشارع وقد دبت فيهم الحياة.. على عكس ما يفعله بنا فصل الصيف، الذي يكبل أقدامك ويلصق ذراعك إلى جانبك.. وليس الشتاء أحسن حالًا منه، فهو الآخر يركب فوق أكتافنا، ويقضم أسناننا.. هذه هي مشاعري التي أحملها نحو فصول السنة منذ أن كنت طفلا.. طفلا! أي منذ أكثر من أربعة عقود. في هذه اللحظة تذكرت التواريخ التي كانت

سنواتها تتساقط أمامي في حلم الليلة الماضية، والتي ظلت تتساقط حتى توقفت عند سنة ١٩٨٠. هناك كانت طفولتي التي تشكلت عندها صورتي الذاتية، التي طالما أعلنت عن نفسها في كل مرة توقفت فيها، أمام حدث من هذه الأحداث منزوعة الفتيل، التي لها القدرة على انتزاع مشاعر الماضى.. فنحن نتذكر المشاعر المرتبطة بأحداث الماضى أكثر مما نتذكر الأحداث نفسها.

مرت ساعة وأنا أمشي بين الناس، أتصادم معهم أحيانًا وأحيانًا أخرى أختبر مدى قوة أكتافهم، فأعتذر لأحدهم واتجاهل الآخر، والتفتُ بحرص لامرأة جميلة تمر من جانبي، فأجعل مرورى بها أشبه بالعبور أمام المقدسات في أحد الأديرة من أجل التبرك بها.

لا توجد أفكار.. يبدو أن الأفكار مازالت نائمة، أو أنها قررت التحليق في أماكن أخرى لم أمر بها بعد. ولكني على ثقة بأنها ستحلق فوق رأسي في أحد الشوارع التي أمر بها في رحلة هذا النهار.

فى الوقت الذي كنت أعبر فيه الشارع، كان يسير إلى جانبي رجل يكبرنى بعشرين عام، طويل القامة.. يبذل مجهودا كبيرا حتى يستقيم في مشيته، وذلك بفعل سنواته التي تجاوزت الستين.. أنه الأستاذ سليمان مدرس اللغة العربية بالمدرسة الإعدادي.. هذا الرجل انحنى لي مرة في حصة النصوص، حين ذكرت له معنى كلمة جاءت في بيت شعري، وكان معنى هذه الكلمة مشروحًا في ست كلمات.. سلمت على الرجل، ثم تركته على بداية الطريق الذي اختاره بعد أن عبرنا الشارع معا.. وبعد أن تركته وجدتني أرفع هامتي، وأفرد صدري، وشعرت بعودي وقد استقام في قوة، وكأني ازددت طولا. وسَرتْ في أوردتى قوة جعلتنى أشعر أنني قادر على

مغالبة ظروف الحياة.. فكرت في التغيير الذي حدث لي في لحظة.. وحاولت أن أجد السبب.. وبعد أن فكرت قليلًا، اكتشفت أن السبب في الحالة التي تغيرت إليها كان في صورة الماضى التي سقطت من حافظة أوراق الأستاذ سليمان وأستقرت في ذاكرتى ورأيت نفسى في هذه الصورة، وأنا بالصف الأول الإعدادي في حصة النصوص وتحديدًا عندما انحنى لي أستاذي الذي استطالت قامته حتى أستند ذات مرة بكوع ذراعه على الحافة العلوية للسبورة المعلقة بالفصل الدراسي، لكنه مع ذلك انحنى لي مهنئا ومقدرا مهارتى في حفظ معنى الكلمة التي جاءت في البيت الشعري.. هنا طلت الفكرة من داخل رأسي بعد أن كانت تحلق بين ضلوعي في حاجة إلى بلورة تجعلها تتنفس أولى أنفاسها كمولود جديد، أتت الفكرة من مخزون الذكريات، وكنت أحسبها ستأتي من تحت أرصفة الشوارع، أو فوق أعمدة الإنارة، أو ستنزلق على فاترينات المحلات.. أنها لم تأتِ كما كنت أنتظر من أي مكان في الشوارع التي عبرت بها كما كنت أظن.

كانت الفكرة التي لمعت في رأسي، صالحة جدًا لموضوع تدريب له القدرة على جذب الأوراق المالية من جيوب الرجال والنساء.. الفكرة تحولت في رأسي إلى سؤال.. كيف تستطيع أن تتحول إلى شخص يستحق التقدير؟.. والإجابة كانت مخزونة في قصة لقائى بالأستاذ سليمان.. كانت الإجابة ببساطة، تؤكد على أنك تشعر بأنك هذا الشخص الذي يستحق التقدير، عندما تتذكر أنك عشتَ من قبل بداخل حدث واحد، كنت فيه مستحقًا لتقدير الآخرين، حتى ولو بسبب أشياء صغيرة.

شكرت للأستاذ مروره بي صدفة.. رغم أنني كنت أثق في أن الفكرة العظيمة سوف تأتي.. هكذا أنا دائمًا.. أصدق أنني صائد الأفكار العظيمة والجديدة، الأفكار البكر التي لم يمسسها أحد قبلى.

دخلت مكتبي.. أدرت جهاز الكمبيوتر، وبدأت في تسجيل أفكارى على صفحة وورد، قبل أن تهرب الفكرة أو تتزاحم معها أفكارٌ أخرى تشتتها أو تجعلها باهتة في رأسي. في بضعة ساعات كنت قد انتهيت من تصميم موضوع ورشة التدريب القادمة.

طرقات خفيفة على باب الحجرة، جعلتنى أترك مقعدى لاستقبال الضيف صاحب الطرقات الرقيقة. يبدو أن الفتاة التي تعمل في السكرتارية، والتي من ضمن مهام عملها، استقبال المترددين على المكتب، كانت لم تأتِ بعد.. فتحتُ الباب.. وجدت أمامي امرأة بوجه، تدفقت في تفاصيله، أنهارٌ من الجمال، والجاذبية، التي تذكرك بنجمات الإغراء في زمن الفن الجميل. دعوتها للدخول إلى مكتبي قبل أن أعرف ماذا تريد. تحركتْ نحو المقعد أمام مكتبي في أربع خطوات، بدت كأنها خطوات وضعها مصمم رقصات، لراقصة تزهو بنفسها وسط تصفيق جمهورها من المعجبين.. جلستْ أمامي، ثم أخرجت سيجارتها، البيضاء الملفوفة في استدارة، تشبه استدارة جسدها الذي يطيعها إذا ما وقفت، وإذا جلست، أو مالت إلى الوراء، لتقابلك بنهدين، مكشوفين، متبجحين، لا تملك أمامهما سوى أن تدس نظرات عينيك بين أوراقك، أو تجعلها تلهو على الحائط الذي أمامك. سألتها عما جاءت لأجله، وأنا متأكد من أنها ليست من أي من أصناف الناس الذين يترددون على مكتبنا، وضعت سيجارتها في فمٍ كأنه طاقة مفتوحة على مدينة للرغبات، أشعلت نارها في السيجارة، ونفثت دخانها في صدر الحجرة الذي تهيج، مما أثارته فينا من رغبات ليس هنا مكانها

ولا هذا وقتها. عرفت منها أنها جاءت إلى الدكتورة مها من أجل أمر بالغ الأهمية. حاولت أن أستفسر عن هذا الأمر من أجل تقديم المساعدة، ولكن طرقات جديدة ومختلفة على باب الحجرة، أنهت حوارى معها.

انفتح الباب، دون أن أتمكن من الوقوف على قدمى لاستقبل أي زائر جديد مهما كان، دخلت مها؛ دكتوراه في التنمية البشرية، وزميلتى في المكتب. عندما رأت المرأة التي في ضيافتى، تغيرت ملامحها فجأة، ودون أن توجه لها أي تحية، دعتها إلى حجرة مكتبها، فخرجت معها هند، هذا كان اسم الزائرة الجميلة، خرجت من حجرتى، وتركت دخانها وعبيرها الناعم، يتطاير في أركان الحجرة، فتشتعل بعضًا من رغبات إنسانية، بداخلى، تجعلنى أتوق إلى مقابلتها مرة، ومرات.

بعد نصف ساعة تقريبًا عادت مها إلى حجرتى بالمكتب، لتجدنى منهمكًا في وضع جدول الأيام التدريبية.. عندما شعرت بوجودها رفعت رأسي، ولم انتظر حتى تسألنى عما أكتب، وبادئتها بقراءة جدول الجلسات التدريبية وموضوع كل جلسة. وانتظرت أن تصفق لموضوعى المبتكر الذي سيتهافت عليه الرجال والنساء ويدفعون من أجله عن طيب خاطر، قيمة الاستثمار.. هكذا نحب أن نسمى مبلغ النفقات التي يتحملها المتدربون ثمنا للتدريب على موضوعاتنا التي نبتكرها من أجلهم. لكن مها لم تصفق لى، عذرها أنها تعودت منى على الأفكار العظيمة.

عدت من المكتب ومعى مها التي فتحت باب المنزل بمفتاح كان في حقيبتها.. توقفتُ للحظة قبل أن أدفع بجسمي إلى الداخل خلف مها متسائلا، كيف تحمل مفتاح شقتى في حقيبتها؟!، وكيف جاءت معي إلى هنا؟!، لابد

أن في الأمر سرًا.. اختفت مها داخل غرفة بجانب السلم المؤدي إلى الطابق العلوي، ثم عادت بملابس النوم.. وسألتني:

- ها تأكل وألا تحب ننام شوية.. وبعدين نقوم نأكل؟
- زي ما تحبي أنا مش جعان
- الأحسن ننام.

كان لايزال بداخلى بعضًا من فضول، علق برأسي بضعة أسئلة عن زائرة المكتب الجميلة، فسألت مها عنها، وشعرت أنها تحوط علاقتها بها بسرية شديدة، وأفهمتنى ولم أكن محتاجًا، أنها ليست من المترددين لتلقى خدمات استشارية أو تدريبية، ولكن تربطها بها علاقة خاصة، وجاءت لها من أجل أمر يخصها، وهي تحترم خصوصية الناس، ولا تحب أن تعلن أسرارها، فعلقت بأننى، لا أحب معرفة أمورًا لا تهمني وأحترم وأقدر خصوصية الناس، وأسرارهم.

اختفت من جديد داخل الغرفة، فدخلتُ خلفها وأنا لازلت أبحث عن إجابات للأسئلة التي دارت في رأسي عند باب المنزل.. من هي هذه المرأة لتتصرف في المنزل بهذه الطريقة؟

خرجت من الغرفة ومعى كل الإجابات.. أنها زوجتى!.. تنام بعض الوقت في هذه الحجرة، وأوقات قليلة تنام إلى جانبي بالطابق العلوي.. أنا أفضل ذلك.

خرجت مها ورائي.. سألتني في حدة:

- أنت مش ناوي تروح للدكتور.. ولا أنت مبسوط بالحالة اللي وصلت لها؟

- حالة إيـه؟ أنت عايزة تجنينى وخلاص.. أنا زي الفل. وحالة النسيان اللي بتجيلى.. أكيد من الأكل اللي بناكله، ولا يمكن بسبب الهم اللي احنا عايشين فيه.
- ومين اللي جاب لك الهم؟ أنا؟!
- سمعتها بأذنين باردتين، فأردفت تقول:
- يا فؤاد أنا خايفة عليك.. لازم تروح للدكتور.. ولا أنت مبسوط أنك بتنسى أني مراتك.
- مش كتير.. أنا بنساكى مرة أو اتنين في الأسبوع.. لما بحلم الحلم إياه، ولما -
- لما إيـه؟
- لما بتبقى مش شايفانى.. أنا كمان مش بشوفك.
- أنا إمتى مش بشوفك؟ أنا مش فاهمة حاجة
- لما مش بتحسسينى أني مهم عندك.. ساعات بستنى تقولى لي كلمة حلوة.. تشوفى في حاجة حلوة.. لكن أنت لا بتقولى ولا بتشوفى.
- أنت مش طبيعى.. أنت منفسن.
- هو ده اللي أنا بآخده منك.. النهارده في المكتب لما قلت لك على التدريب اللي ناوي أعمله.. كنت مستني تصفقي لي.. تقولى لي برافو إيـه الروعة دى.. لكن أنت أتعاملتى مع اللي قلته بمنتهى البرود.
- كفاية كدا عشان أنت داخل على غلط.. وأنا عايزة أنام.

- ها تنامى تحت وألا فوق؟.. وألا أقولك.. يلا ننام هنا، أنا مش قادر أطلع السلم.

دخلت مها لتنام، دون أن يوجعها كلامى ولا حتى أظنها فكرت في شيء مما قلته لها.. بهدوء أخذت مكانها على حافة السرير لتبتعد عنى على قدر ما تستطيع.. نمت بجانبها وأنا أراقبها وهي تغوص بكل وعيِّها في نوم كان ينتظرها منذ اللحظة التي تركتْ فيها الفراش في الصباح. عجيبة هذه المرأة.. أنها تدين بثقافة جدتها، التي مات عنها زوجها منذ اليوم الأول لزواجهما، فهي ترى أن الرجل مثل ذكر البط.. وجد ليتمم مهمتين اثنتين، ينجب الأطفال ويشغل حيزًا من الفراغ داخل المنزل، وإن لم يفعل ولا واحدة منهما، فيتحتم على المرأة العاقلة أن تفعل شيئًا قويًا، لتجعله كالدمية الذكية التي تستجيب لريموت كنترول، مثبت عند أطراف أصابعها. وأعتقد أنني قد نجحت في أن أشغل هذا الحيز من الفراغ داخل المنزل، حتى هذه اللحظة، أما عن إنجاب الأطفال، فلم أفلح في القيام بهذه المهمة طوال خمس سنوات، هي عمر زواجنا.

خمسة عشر دقيقة عشتها معلقا في عقارب الساعة المثبتة فوق الحائط وأنا بجانبها.. تقليد ممل أن تترك ساعة في كل مكان، لتحاسبك عن الوقت الذي يسقط من رصيدك.. درت بوجهي بعيدًا عنهما.. أعطيتهما ظهرى.. المرأة التي تدعى أنها زوجتى، والساعة التي تلعب ضدى، وكل رغبتها أن تقول لي في النهاية (جيم أوفر)، فهي متأكدة من خسارتى سواء طال الوقت أم قصر.

من عاداتى أن تدور الأفكار وترقص في رأسي رقصاتها الصاخبة، وأنا نائم في فراشى.. الأفكار ترسم صورة الحلم الذي رأيته بالأمس، في

مخزن الكراكيب.. المخزن الممتلئ عن أخره بأشيائى القديمة باهتة الألوان.. أشياء عمرها أكثر من ربع قرن.. هذه الأشياء تختزن بداخلها طاقة تحركنا كلما تعاملنا معها.. وكأنها مسحورة مثل مصباح علاء الدين.. ولكن كل الكراكيب تحمل طاقة الماضى.. فهل نحتاج إلى طاقة الماضى لينصهر الحاضر ويذوب فتختفى ملامحه؟ هل لدينا الجرأة أن نطرح الكراكيب خارجًا ونتخلص منها إلى الأبد، أم أننا نرضى بها، ميراثا من الماضى ونتصور أنها تعطينا شيئًا لم تعطه لنا من قبل؟.

تذكرتُ المرأة التي تشكلت من أدخنة الحجرة.. والطفل الذي انتهرنى عند بابها.. حاولت تفسير الحلم.. لم أصل إلى شيء.. ربما أفكر في زيارة صديقي سامح.. الطبيب النفسى.. سأذهب له ليس بغرض العلاج كما تريد زوجتى، ولكن كي أناقشه تفاصيل هذا الحلم وأحاول فك رموزه.. فهذه اللعبة تعجبنى.. فمنذ زمن بعيد كنت أكتب القصة الرمزية وأجعلها تمتلئ بالرموز.. وأحرك هذه الرموز لأصنع بها مادة السر التي تورط من يقرأها في إيجاد حل اللغز، وقراءة المقصود في سطور قصتى، فيتلذذ بها.

خمسة وأربعون دقيقة مرت لم أفعل فيها شيئًا سوى التفكير، وماذا سأفعل في السرير سوى النوم أو البحث عنه؟.. بدأت جفوني تسقط معلنة عن قدوم الزائر العزيز.. النوم الذي لا أعرف سر الوصول إليه، هو نفسه النوم الذي تجذبه زوجتى من تحت الوسادة بمجرد أن تلمسها برأسها، وأحيانًا يقوم النوم بمهمة حمل رأسها الجميل وهي مازالت تحدثنى، فيغالبها النعاس قبل أن تصل إلي الوسادة التي تستقبلها بمنتهَ الحفاوة.

درت في سريرى عدة مرات قبل أن أفيق.. فتحت جفونى وأطبقتها ثم فتحتها من جديد لأعلق ناظرىَّ على عقارب الساعة، التي جُعلت ترقص مهنئة سعادة جنابى على أكثر من ستين دقيقة نمتها، مع عدة تقلبات قمت بها في السرير.. بالطبع لا أعرف عددها.. عدت بناظرىَّ في رحلة قصيرة بدءًا من مراسم الحفل الذي تقيمه ساعة الحائط على شرفى، إلى داخل المساحة المشغولة بجانبي في الفراش.. كانت نائمة.. امرأة تتنفس بقوة قبيلة بدائية تحاول إخافة العدو. من هي هذه المرأة التي تنام بجانبي؟دون أن تشعر بوجودى ولا بأى شيء آخر.. يبدو أنها المرأة الغريبة التي كانت تنام في سريرى ليلة أمس.. نعم يبدو أنها جاءت لتنهى مهمة في فراشى وتأخر بها الوقت، فقررت أن تقضى معي ساعات النهار أيضًا.. ولكن أرجو أن لا تكلفني هذه الساعات الإضافية مبلغا من المال يقضي على ما تبقى في جيبى من نقود.. ولكني لست معتادا على مصاحبة النساء إلى سريرى!.. وإن كنت أحب النساء.. كل النساء.

دارت المرأة في السرير مرة ومرتين، ثم فتحت عينيها لترانى أحاول استيعابها وتفسير ملامحها في محاولة يائسة منى لمعرفة سر وجودها هنا.. سألتني وهي تحدق بعينين كافحت من أجل الإبقاء عليهما مفتوحتين:

- فيه إيـه.. مالك؟ بتبص لي كدا ليه؟

أزاحت بيدها ملاءة السرير، التي كانت تغطيها، فكشفت عن جسدها العاري.. هنا أيقنت أنني بجوار امرأة مصنفة على فئة سعرية ببورصة ملذات الشوارع الليلية.. تمطت وتثاءبت وانثنت وانفردت ثم أغمضت عينيها، وتمتمت بكلمات اعتدت سماعها:

- ما تنساش وأنت راجع تجيب أكل معاك.. التلاجة فاضية.. هو كل حاجة لازم أنا اللي أعملها في البيت ده؟
- نزلت علىَّ كلماتها كحائط متصدع، ملئ عينى وأذني بغبار أتربته وفتافيت من جسده المهترئ، فلم أرى ولم أسمع إلا صوت اندهاشى، وأنا أعيد على نفسى كلماتها بصوت يضج في صدري ولا يسمعه أحد غيرى.. فعادت لتقول بصوت مازال النوم يسحق مخارجه:
- أنت سمعت أنا قلتلك إيـه؟
- أيوه.. حاضر.. ها أجيب.. أنا عامل حسابي
- لما أنت سامعني ما بتردش ليه؟
- أنا لسه بفوق من النوم
- بتفوق وألا.. بتبحلق فىَّ.. هو فيه حاجة في مش عجباك؟!
- لا أبدا.. أنا بس كنت بفوق زي ما قلت لك.

تدافعت المعلومات في رأسي كما تندفع المياه من ماسورة كبيرة كُسرت حديثًا.. تذكرت كل شيء.. عرفت من هي هذه المرأة نصف النائمة، كاملة العرى.. أنها زوجتى الثانية؛ مها.. الدكتورة مها.. قامت من السرير وتحركت في الحجرة دون أن ألحظ ما كانت تفعله قبل خروجها.

لقد أعتدت على معايشة هذه اللحظات التي أتعامل فيها مع الواقع بعقل غائب وجسد مخمور.. دون قطرة خمر.. هل تحولت لعبة النسيان التي ألعبها مع مها، وأضع أنا قواعدها، إلى لعبة قدرية، ألعبها بغير إرادتى؟ .. أنا لا أصدق ما حدث الآن مع مها.. هل أصبحت مريضًا بنسيانها فعلًا، ولماذا هي بالتحديد؟ مصيبة أن تتحول ألعابنا في الحياة إلى واقع.

دارت رأسي وعادت بي قبل ثمان سنوات مضت، كنت وقتها متزوجًا من ناريمان؛ السيدة الأولى التي كان من أعظم أعمالها تدمير مساحات شاسعة من رومانسيتى، التي كنت قد شكَّلت ملامحها في الأوراق الملونة التي نكتب فوقها، ونحن نراقص سنواتنا في عمر المراهقة. حين تصورت أن الرباط المقدس سيضفر جسدي بجسد امرأة إذا تكلمت غردت، فتعشق الطيور ألحانها، لكنها غردت، فقتلت كل طير في حديقتى، وباعتنى أنا وجثث أحلامى، بعد خمس عشرة عام من الزواج الذي يشبه علاقة موظف بوظيفته التي سأمها. كانت أعصابها مرجل يغلى، تهتم لكل شيء، إلا أنا، فكنت كثيرًا أعاتبها بسخرية، وأقول لها، ناريمان أنت تنشغلى بأمور كثيرة والحاجة إلى واحد، فكانت ترد على سخريتى وهي تهزأ بكلامى وتؤكد أنها لا تحتاج لأحد. كانت تحترق غضبًا لأنني نسيت المصابيح مضائة طوال الليل، وتغتاظ من ملابسى لو أنها ضبطتها ملقاة فوق المقاعد أو على السرير. ردود أفعالها تجبرنى على استفذاذها بمزيد من الأخطاء، كان عقد زواجنا، أشبه بفاتورة تليفون مضطرًا لدفعها حتى ولو أن التليفون دائمًا معطل أو مشوش، لا يقوم بإرسال أو استقبال، ولأنني لم أخشَ من انقطاع الحرارة فقررت ألا أقوم بدفع أي مستحقات جديدة من فاتورة هذا الزواج الفاشل، الذي استنفذ كل طاقتى على الاحتمال. فانفصلتُ عنها.. طلقتها.. لعنتنى.. ثم رحلتْ.

فى هذه الأيام، كانت مها تمد جسورًا قوية للصداقة بيننا.. مها الزوجة المهوسة بالشعر والحب، وبرباط الزواج المقدس.. أنا لست مصدقا أنها نفس المرأة التي تزوجتها بعد أن طلقها محسن بعام واحد.. لقد شَفيتْ من هوسها بالشعر والحب معا، وبقي لي من أمراضها، هوسها بتأنيبى والتقليل من شأنى، واتهامي بنسيان كل ما يتعلق بها وأحيانًا نسيانها هي نفسها، وإن كان نسيانها قد أصبح جريمة حقيقية وليس مجرد اتهام.

قبل أن أتزوج مها، كنا نلتقي أثناء ساعات العمل بمؤسسة الحياة للاستشارات والتدريب، في الفترة المسائية، وأحيانًا في ساعات الصباح، لتقوم بمهام استشارية، نقدمها للمترددين على المؤسسة، حسب ما تقرره اتفاقيات وعقود التدريب.

أن العلاقات التي تنسجها الصداقة بين الرجل والمرأة، نُسجتْ من خيوط ضعيفة، ووجدتْ لتتمزق في أول محاولة من أي من الطرفين للتغيير في شكل وطبيعة هذه العلاقة، وتصبح محاولة ترتيق النسيج القديم ليس أكثر من محاولة متخلفة، وتافهة، تكشف الحقيقة من خلفها. وكلنا نعرف هذا.. أن العلاقة بين الرجل والمرأة، قد تبدأ تحت أي مسمى.. ولكن إن كتب لها أن تستمر، فلابد أن تعود إلى الطبيعة الأولى للعلاقة التي نشأت بين أدم وحواء، وإن لم تتحول إلى هذه الطبيعة الأصلية، فأنها لم تكن من البداية تحمل في طيَّاتها مقومات البقاء. فكل العلاقات قد تسقط بقوة الزمن والمكان.. فحين يباعد بيننا الزمن، تسقط العلاقات، وحين يباعد بيننا المكان، تسقط العلاقات أيضًا، ولكن علاقات الحب، هذه العلاقة الأصلية الأولى، هي علاقة تتشكل خارج حدود الزمان والمكان.

أنا ومها كنا أطرافًا متجاذبة في علاقة أسميناها مؤقتًا، صداقة.. كانت تحب دائمًا أن تحكي لي عن زوجها.. ليس عن عمله وعلاقاته ومعاملته الطيبة لها، ولكن عن علاقتهما الخاصة معًا.. الخاصة جدًا. وذات مرة كنت أجلس إليها.. أستمع إلى حوارها.. وكان الوقت يمر منسحقا بلا اهتمام؟ فربما مرت ساعة أو أكثر، وهي تحدثني عن زواجها الذي يشبه القصص الأسطورية.. وزوجها الذي تعشقه كواحد من أبطال الأفلام السينمائية، وتصفه بكل عزيز وغالي. تحدثت كثيرًا عن علاقتها به.. غاصت في التفاصيل وأخذتني معها.. جرجرتني وراءها بلا رحمة.. كانت تعرف أنني متعطش للذهاب إلى هناك.. كانت أوقاتها معه في الفراش قصة لا تفارق

فمها طوال لقائي بها.. وبحكم صداقتنا، كانت تغلف كلماتها المتأججة نارًا بأغلفة من سلوفان الأخلاق والأدب، ولكن أي نوع من السلوفان هذا الذي يستطيع أن يقوى على النار التي تنفخها في حروف كلماتها التي تصف بها علاقتها الخاصة بزوجها.. لقد كانت في حديثها معي، تضغط على كل كلمة تنطق بها، بأسنان راقصة دغدغت تحتها الكلمات ومن قبلها دغدغت مشاعري المتعلقة بشفقة الصور التي ترسمها لي في سطور حكاياتها.. هذه الصور التي كنت أرسمها من قبل لتحديد ملامح زواجي الأول.. تلك الصور التي لم تتحقق أبدًا.. ولم أكن أعلم هل كانت مها تقصد من وراء روايتها أن تصل بي إلى الحافة المهترئة لصداقتنا، فأسقط وأتعلق بنوع آخر من خيوط علاقة جديدة تربطني بها. وماذا عن زوجها؟ بطل روايتها.. هذا الرجل الأسطوري؟ كلا.. أنها لا تقصد بي هذا، هي فقط تثق بى.. لذلك فهي تروي لي القصص التي تتلذذ بها.. هي تحب ذكريات علاقتها بزوجها الغائب الذي يعود لها مرة كل عدة أشهر، ليقضي معها أياما قليلة، تكاد تكفي عطشها إليه. وكل ما هنالك أنها قد وجدت في حضوري مستمعا جيدا لروايتها، مستمع ينصت باهتمام وترقب ولهفة، وإن كانت صاحبة الرواية قد نجحت في حصاري بصوتها الذي كان من فرط أنوثته يبدو وكأنه محارب يتوجع من قسوة جراحاته في أخر معركة خاضها بشجاعة. كانت مها تحكي لي أدق التفاصيل، حتى أنها وصفت لي مشاعرها وهي تطلق شفتيها كأسد جائع يطارد كل سنتيمتر من جسد زوجها العاري وهو معها في السرير.. كيف لي أن أحتمل؟ حتى وإن كنت أمثل أمامها دور المستمع الراهب، الذي لا يهتز له وتر.. كانت تفهم مشاعر الناس.. كانت خبيرة بصناعة السهم المسموم، ولم ترحمنى، أو ربما وقتها كانت تؤمن بقوتي وقدرتي على مقاومة ضعف البشر أمثالى..

ولكن كيف؟! وهي التي تعرفني أكثر من نفسى.. نظرت إليها وحاولت أن أجعلها تتوقف:

- مها.. بعد كل هذه السنوات وما زلت تحبين زوجك بهذه الطريقة؟!
- أجابتنى في غير تردد: أنا أعشق هذا الرجل.. وأعشق الحالة التي أكون عليها حين يأخذني بين زراعه، ويهدهدني كطفل يفرح بحضن أبيه.. هو أبي وزوجي وحبيبي وعشيقي.

قالت هذا وهي تغمض عينيها، وتضم صدرها بكلتا زراعيها، وكأنها تغلقهما على جسد زوجها العاري الذي تبلله بقبلات تشبه فتاة بلغت لتوها مرحلة المراهقة.

زلزلتنى إجابتها.. بل صعقتني.. حولتنى إلى كتلة غير آدمية خلت من كل شيء إلا من حقدي عليه.. تمنيت لو أني تحولت إلى طاقة انفجار هائلة تعمل كل عملها في وجه هذا الرجل.. زوجها الذي قالت عنه يومًا دون أن تلتزم الحذر، أنه أحمق كبير.. كونه لا يفهم هذا العشق الجميل الذي تكيله له بسخاء.

لماذا كنت أستمع إلى رواياتها؟ هل كنت ألذذ نفسى بكلماتها التي تشبه جمرات النار في خيالات المراهقين.. ترسم لهم الصور الإبليسية الملتهبة، وتأخذهم إلى آخر الدنيا وتتركهم بلا راحة.

لم أنسَ أنها صديقتى المقربة جدًا إلى نفسى.. التي كنت أخلع على أعتابها كل أقنعتى، حتى أنها كثيرًا ما كانت تقول لي دون حرج:

- فؤاد.. أنت عارف إيـه هو مبدئك الأسمى؟
- فأسارعها القول: قولى.. إيـه هو؟
- أنت مبدئك.. اللامبدأ.

قالت هذا ثم ضحكنا، ولم أسألها السبب الذي لأجله قالت ما قالت.. لكن شيئًا غريبا كان يحدث بداخلى.. فقد شعرت بارتياح كبيربعد أن صرحت بقولها لي " أن مبدئى هو اللامبدأ ".. فربما كان السبب في هذا الارتياح يرجع إلى أن ما قالته عنى، حمل في طياته قوة كافية لنسف جدار الصداقة الذي بنيناه لعلاقتنا منذ أن عرفتها.. هذا الحاجز الذي يمنعنى من قتال المسافات التي تفصلني عنها.. ولكني لو أردت لجعلت كل المسافات بيننا لا تتجاوز قيمتها الصفر.. فيصبح من حقى أن اقترب منها، على النحو الذي تبيحه بروتوكولات العلاقات الساخنة.. ولكن كلامها عن علاقتها بزوجها كان دائمًا يضعنى خارج الحدود، ويبقيني متفرجا في حلبة تصارع فيها الخلايا الأولى لرجل وامرأة.

كنت في هذه الأيام أعود إلى البيت بعد لقاء مع مها، كتبت له كل أسباب التحول إلى فعل تشتعل فيه الخلايا، لكنه بقى ساكنا. كنت أعود إلى البيت وأنظر في غير اهتمام إلى وجه ناريمان؛ زوجتى التي لم تقابلنى مرة واحدة طوال عمر زواجنا الذي دام أكثر من خمسة عشر سنة، لم تقابلنى بعناق حتى لو قصير.. حتى لو مزيَّف.. هذه المرأة التي تبذل جهدا كبيرا، لتبتعد عنى بشفتيها على قدر ما تستطيع، حتى لا تلتقي بقبلاتى التي لم يقدر لها يومًا أن تجد لها مآوى فوق شفتيها.. فتسقط على وجهها حينا وحينا آخر تقع على فكها أو أنفها، قبلة خجلة. مثلها مثل أي شيء مقرف تتقبلها زوجتى بغضاضة وغصب، لكي تنهى واجب الزوجية، كأي امرأة تعلمت طقوس الزواج، على يد جدتها التي مات عنها زوجها في اليوم الأول من الزواج.. فأضحك من زوجتى، أو ربما ضحكتُ من الأقدار التي بدَّلتْ كل تفاصيل الصورة التي رسمتها في سنوات مراهقتي وأحلام صبايا، عن المرأة التي سأتزوجها.. كنت أرى نفسى دائمًا كمارد محموم،

أتكئ على حافة الشمس، فتصبح كل خلية في جسمي كأنها أحدى محطات الطاقة.. تفجر الشعور الجميل في كل لحظاتي، فأمارس الحياة خارج حدود الزمان والمكان. ومشى المارد المحموم ألف ليلة وليلة، يحمل فوق ظهره حصاد عمر طويل من اللهفة والاشتياق والرغبات المحمومة، وعندما وصل في أخر الليل وجد نفسه في حضن امرأة من خشب، فذوبته الحمى ونثرته كالغبار يسقط على أرضية الغرفة، ولا يفعل شيئًا أكثر من أن يتعلق بنسمة هواء طيبة تزور غرفة الزوجية من حين إلى آخر.

فى الثامنة من مساء اليوم، خرجت من المنزل متجها إلى مكتبي في مؤسسة الحياة للاستشارات والتدريب.. كانت الشوارع قد بدأت تمتلئ بالمارة، وواجهات المحلات تزينت بأنوارها المتزاحمة.. الناس يندفعون داخل محلات الملابس والطعام بالقوة الذاتية، من يدخل أولاً يكسب الجولة.. كأنهم دخلوا ليغرف الواحد منهم من خزائن تلك المحلات ما عاش يحلم به طيلة حياته، دون أن يطالبه أحد بدفع الثمن.. أناس يخرجون وأناس يدخلون والبعض الآخر مازال يصارع عند باب الخروج.. وأنا أراقب كل هذا وأتذكر مخزن الكراكيب الذي يحتل مكانه في نهاية البهو الكبير بمنزلى.. نتزاحم على الأشياء وتتملكنا سعادة غامرة كلما أضفنا شيئًا جديدا إلى مقتنياتنا.. وتمر الأيام وقد لا نختبر السعادة التي كنا نظنها تتحقق لو أننا امتلكنا هذه المقتنيات.. قد لا نختبر سعادتنا بهذه الأشياء مطلقا.. وبعد سنوات تصبح ممتلكاتنا مجرد كراكيب تشغل حيزًا من الفراغ داخل المنزل، ولكنها مهما حاولت فلن تنجب الأطفال. ضربنى هذا الخاطر ضربة عنيفة، فهل أصبحت أنا بالنسبة لزوجتى، مثل القطع القديمة الرمادية والنحاسية باهتة الألوان، التي يمتلئ بها مخزن الكراكيب في منزلنا؟.. هل أصبحت من الكراكيب التي لم تزل حرة، أتحرك هنا وهناك، ولم أتوارى بعد في مخزن الكراكيب؟.

خطواتى أصابتها حمى من نوع غريب، جعلتها تأكل المسافة بنهم شديد، فوجدتني أقف أمام عيادة الدكتور سامح.. الطبيب النفسى.. صديقي الذي فكرت في أن أطْلعه على الحلم الذي يتكرر معي في كل ليلة، وكل ليلة تفاصيل مختلفة.

صعدت السلم إلى الدور الثالث.. وقفت أمام العيادة كأني زائر جديد يأتى لأول مرة.. تفحصت اللافتة التي كتب عليها اسم الدكتور سامح، والمعلقة إلى جانب باب العيادة الخشبي الذي يقف صامتا وهزيلا هزمته سنواته الطويلة. وقفت أتفحص اللافتة لأكثر من ستين ثانية.. خلالها كنت شارد الذهن، أحاول أن ألملم انتباهي الذي زاغ منى في الممرات المؤدية إلى الأبواب القديمة للشقق الموجودة بالدور الثالث.. كنت أفكر في العودة.. درت بوجهي خمسة وأربعون درجة بحثا عن بداية السلم الذي حملنى إلى العيادة، فقرار العودة إلى الشارع كان قد حصل على تأييد جميع خلايا عقلى.. قبل أن التفت إلى الوراء لنزول السلم، فُتح باب العيادة وخرج واحد من المرضى الذي بدا على وجهه علامات الراحة، حتى أنه دعاني إلى الدخول لنيل ما ناله من بركات الدكتور سامح.

دخلت العيادة وتركت الباب مفتوحًا، لأن أبواب العيادات لابد أن تبقى مفتوحة في انتظار المرضى، وربما لأن قرار التقهقر والعودة إلى الشارع كان مازال عالقا ببعض خلايا رأسي.

جلست بين المرضى القلائل الذين كانوا في انتظار الدخول إلى حجرة الكشف.. نظرتْ إليَّ الفتاة التي تعمل مساعد للدكتور سامح؛ تقوم بحجز مواعيد الكشف وترتيب دخول المرضى إلى الطبيب، وإدخال بيانات المرضى على قواعد البيانات، أنها كل الجهاز الإدارى في العيادة. حين رأتنى قامت من مكتبها وأسرعت إلى المقعد الذي كنت أجلس فيه، وبعد أن وجهت التحية، قالت لى:

- الكشف اللي جوه قرب يطلع، وها أدخل حضرتك على طول.
- لأ.. شكرًا.. أنا ها أستنى دورى.. شكرًا يا علا.

تركتنى علا، وعادت إلى مكتبها.. جميلة.. ترفع هامتها في اعتزاز كأنها تجلس على كرسى الوزارة، تقرر مصائر الناس.. نحن ملوك على قدر ما نظن، وليس على قدر ما نمتلك..

لم يكن الوقت يشغلنى كثيرًا، حتى أنني لم التفت إلى العقرب الذي كان يدور على الحائط خلف مكتب علا، التي كنت أراقبها من وقت لآخر في محاولة لرسم ملامحها التي لا تراها العين المجردة، هذه عادتى أمارسها مع بعض الناس، في بعض الأوقات التي تشبه هذه الساعة التي أقضيها في انتظار مثولى بين يدي الدكتور سامح. كانت علا قد جاوزت عامها الثلاثين بسنة أو اثنتين، إذا وقفت دارت على كعب حذائها بخفة راقصة الباليه، وإذا مشت فعلت في رشاقة، حتى أنك تحسبها عارضة تبيعك الموضة.. تضحك بين الحين والآخر بوقار امرأة من الطبقة الأرستقراطية، وتهديك ابتسامتها في غلاف تحية مؤدبة، وأعتقد أنها تخفى جزءًا كبيرًا من ملامح شخصيتها، خلف نظارة وقورة تستكمل بها الزىّ الرسمى لعملها داخل العيادة.

كان في صالة الانتظار بالعيادة، فتاة تجاوزت العشرين، ومعها سيدة في الخمسين من عمرها، تتكلم طول الوقت إلى الفتاة التي لم ترد على أي شيء مما تسمعه.. وفي أخر الصالة جلس رجل تجاوز عمره الوقت الذي ينشغل فيه أحد بمجريات الأمور من حوله، هذا العمر الذي نتحول عنده إلى عوالم صغيرة منغلقة على ذاتها.. تدور أجهزتها بصعوبة، وتنفصل تمامًا عن العالم الذي يحيط بها. والغريب أنه جاء هنا بمفرده، لتكتمل منطقية وجوده التي لا تهم أحد.

مر الوقت دون اهتمام أو تقدير، حتى قارب على الحادية عشر.. فكرت في أن أنفذ قرار العودة الذي تأخر أكثر من ساعتين، لكن باب حجرة الكشف كان قد انفتح فجأة لتنتهى مناقشة بشأن العودة دون رؤية سامح، والذي حسم أمرها، هو صوت مفصلة الباب الذي أنطلق لينذر رأسي بالتوقف عن الدوران.

أخذتني علا إلى حجرة الكشف بجملة اعتذار قصيرة، بسبب طول فترة انتظارى.. ثم أغلقت الباب من خلفى.

قابلنى سامح بنظارته التي تمنحه حق التطلع إلى الناس من تحتها، وكأنه يطمئن إلى أنه يراهم داخل المنطقة المقررة للرؤية، والمحددة بين شاربه الأنيق والحدود السفلية لنظارته. يملك سامح مجموعة من الأدوات الشخصية، التي تساعدك في أوقاتك الحرجة، أن تتخلص من العواطف المشوشة للوعى، ومنها، أنه كان مباشرا كطلقة مسدس، كلماته مضبوطة، تصيب قلب الهدف. وهذا ما ينقص معظمنا حين تدور بيننا الحوارات اليومية.

جلست في المقعد المقابل لجلسة سامح، بجانب مكتبه الأنيق، بعد أن رحب بي وسألنى عن أحوالى وعن صحة زوجتى.

- الأستاذ فؤاد مدرب التنمية البشرية.. جاىّ يدردش ولا جاىّ يكشف؟
- أنا ما دفعتش كشف.. يعنى دردشة.
- طبعا.. ما أنت دكتور.. بتقول للناس اللي مقتنعين بالتنمية البشرية، إزاي يتعاملوا مع حالتهم النفسية والذهنية، وبتعرفهم يعيشوا إزاي بطريقة أحسن.. يعني مش محتاج لي.
- ما كنتش جيت لك.
- يعنى ها نشتغل؟

- أنت وشطارتك معايا.. لو قدرت تاخدنى لسامح الدكتور، ها أسمع الكلام وأعمل فيها عيان.
- طيب يلا نبدأ
- وأنا مستعد.
- تكلم سامح كثيرًا وأستمع منى أكثر، ولم نصل إلى شيء.. ثم فاجأنى بسؤاله:
- ها تطلق مها أمتى؟
- ليه؟
- عشان أنت قلت لي أخر مرة اتقابلنا فيها أنك ها تطلقها.
- ده كان حلم.
- عارف.. بعد ما حكيت لي الحلم، قلت لي أنك ها تشوفنى المرة اللي جايه وأنت مطلق.
- أنا قلت كدا؟!
- أنت فعلًا بتنسى؟
- أحيانًا.. بس الغريب أني مش بأنسى غير مها والحاجات المرتبطة بها.
- حالتك مش غريبة.
- أنا سمعت عن حالات فقدان ذاكرة مؤقت.. وعن ناس بتنسى مواقف مش قادرة تتحملها، زي موت حد أنت بتحبه قوي.. لكن ليه بأنسى مها؟!

- أنت اتجوزت مها عشان تحسم معركة، ولما انتهت المعركة، لقيت نفسك خسران، وأنت من الناس اللي ما بتحبش تخسر.. فعقلك قرر ينسى، لكن مش طول الوقت.
- أنا حاسس أني قاعد قدام فيلسوف مش دكتور نفسى.. وإيـه كمان؟
- أقولك بقى كلام الدكاترة.. أنت بتمر بحالة اضطراب بسيط في الوعىْ.. حالة بيسموها Disoriented for persons.. اللي بيتعرض للحالة دى بينسى شخص معين وبينسى علاقته بيه، للحظات قليلة، وبعدين بيرجع كل شيء طبيعى.. يعنى بسيطة.. المهم تهتم بالعلاج.
- يبقى الموضوع بجد.. مش لعبة ذىّ ما كنت راسم.. أنا عيان فعلًا.
- أنت جوكر حقيقى.. وبتعرف تحرك اللعبة.. لكن أنا دكتور واجبي أشخص وأقرر حالة، وأوصف علاج.
- أمرى لله أنا كنت جايْ أدردش معاك.. المرة دى كسبت أنت اللعبة وسحبتنى في سكة الكشف والعلاج. أهى جولة.. لسه ما وصلناش للجيم أوفر.
- ثم ضحكنا.....
- فاكر أول مرة قدرت فيها، تقنع مها وهي متجوزة محسن، بأنها ممكن تعيش معاك اللحظة؟ كانت النتيجة أنها وافقت أو استسلمت لتأثيرك.. كانت لعبة وأنت كسبتها. فاكر؟

أومأت برأسي اوافقه ما قال، وأدرت شاشة السينما في رأسي، فشاهدت مها بين زراعى، تدور بوجهها يمنة ويسرى بنعومة امرأة تريد أن تستسلم، فكانت قبلتى الأولى لها، غنيمتى في أولى المراحل التي اجتزتها من لعبة فك الأسرار.

صوت سامح جاءنى من داخل صورة ضبابية، رأيته وهو جالس أمامي دون أن أميز ملامح وجهه لأعرف إن كان قد لاحظنى وأنا غارق في ذكرياتى، أم أن مشهد الماضى الذي رأيته يتمطى ويملأ اللحظات الطويلة، قد مر على سامح في ثوان لم يلحظها.. أعادنى صوته إلى حجرة الكشف، لأستمع لبقية حوار كان قد بدأ يؤتى ثماره:

- فاكر بعد ما نزلتْ مها من مكتبك، وسابتك وحدك، كان إيـه الإحساس اللي أنت حسيته؟
- أيوه.. كنت طاير من الفرح.. كنت حاسس أني كسبت معركة.. وأنى قدرت أثبت لنفسى أن الست اللي مجنونة بحبها لجوزها، أتجننت بي ولو للحظة، مش مهم.. لكن أهى أتجننت.
- أنت بتحب تكون كسبان، ولما أتجوزتها ولقيت حياتك معاها مختلفة عن الصورة اللي كانت بترسمها لحياتها مع محسن جوزها الأولانى، حسيت بإهانة.. أقولهالك بأسلوبك.. أنت خسرت اللعبة.. وده خلاك تفتكر أنها مش مقدراك، وأنك ما تستحقش تبقى في المكانة اللي تخليها تحبك وتبقى مهووسة بيك، زي ما كانت حاسة ناحية محسن.
- كل ده مش مهم.. إيـه علاقة حالة النسيان اللي عندي باللى أنت بتقوله
- كفاية كدا النهارده.. نكمل يوم التلات الساعة تمانية ونص.
- دكتور.. أنا لسه عندي موضوع أهم.
- موضوع إيـه؟
- الحلم.. أنا حكيتهولك في التليفون.. إيـه رأيك؟
- وأنت بتحكيه.. اختصرته.

- إزاي؟
- ركزت على الرموز اللي في الحلم.. عشان أنت بتهتم بالرموز اللي أنت بتصورها دايمًا في قصصك.
- (سكتْ لحظة تغير وجهه فيها، من ملامح الطبيب إلى ملامح الصديق) ثم قال:
- بالمناسبة.. أنت ليه بطّلت تكتب زي زمان؟
- ابتسمت وأنا أقول: سامح صاحبي نط جوه بالطو الدكتور.. أنا كدا هتلخبط.
- يبقى نخرّج صاحبك عشان نعرف نشتغل.. تعالى نفك الرموز.
- أنا قصدت أركز في كلامى معاك على الرموز.. الست اللي اتشكلت من الدخان.. الطفل الصغير.. التواريخ وأرقام السنين.. الكراكيب القديمة.
- كل الرموز دى تخصك أنت.. أنت الرابط اللي بينها، الست اللي دخلت ضلوعك تبقى نفسك.. والطفل اللي فتحلك الباب كان طفولتك؛ اللي أنت رجعت قابلتها سنة ١٩٨٠.. والكراكيب هي الحاجات اللي بتفضل عايشة جوانا من الماضى.. ونفضل نتصرف على أساسها ونتحرك بالطاقة اللي مخزونة جواها، ونسلملها الحاضر ونسيبهولها تأكله، وتسيب لنا شوية عضم ما يسدوش جوع. يعنى من الآخر بنحرق حاضرنا بكراكيب من الماضى، بنفخ فيها النار.

تخلصت من الكمين الذي نصبه سامح، ومن تعليقاته وتفسيراته التي ظل يحاصرنى بها حتى هذه الساعة المتأخرة من الليل.. كانت الشوارع خالية إلا من أعمدة الإنارة، التي وقفت ترمى بظلالها على بعض المارة الذين فضلوا البقاء في الطرقات إلى هذه الساعة المتأخرة، على النوم متسربلين

في أغطية دافئة يشاركهم فيها أناس يقتلون رغباتهم وأوهامهم الجميلة.. كانت الكراكيب التي أحملها بداخلى أكثر مما خزنتها بالحجرة المظلمة.. وكانت الطاقة المختزنة داخل كراكيبى هي التي تحركنى قرابة أربعين عام.. طاقة تستمد عمرها من الأوقات التي تسرقها منى بقوة لا أقدر على مقاومتها.. ولكن في مخزن الكراكيب توجد أيضًا، بعض الأشياء القيَّمة التي لا نراها إلا إذا بحثنا عنها كثيرًا، أو أوقعتنا الصدفة على واحدة منها، كما حدث في هذا النهار، عندما أسقط الأستاذ سليمان واحدة من أشيائى القديمة التي ادخرت لي قيمة كبيرة وتقديرا أفتقد وجوده في حياتى الآن، ولا أجده مع واحدة من أقرب الناس.. هناك على الأطراف البعيدة لزمن عشته بوعى رجل حكيم، وأنا لم أزل طفلا في الصف الأول الإعدادي، وجدتُ ضالتي، بل أنها ضالة كل الناس، والتي تكمن في شعورك بأنك شخص مقدر.. نعم قد وجدت ضالتي، عندما انحنى الرجل وقدرنى، ورفعنى فوق هامات زملائى.. لقد وضعنى الرجل في حيز التقديربداخل عقله.. هكذا تصورت نفسى يومها.. ويومها أيضًا قد تعلمت شيئًا ظل عالقًا في ذهنى طيلة سنوات عمري، وهو...

أن التقدير أيقونة مقدسة.. تمنحنا بركة أن نحيا شرفاء.. حتى اللحظة التي تعبث بها أيادي غرباء، قد يدخلون حياتنا بطريق الخطأ.

إلى متى نُبقى حياتنا لحظة مؤجلة..

والعمرُ كدوائر الدوامة.. يبدأ كنقطة صغيرة..

ثم تدور الدوائر وتتسع.. وتتلاشى في نهاية كبيرة.

فإن كنا سنعيش فلنقفز فوق دوائر البداية.

الليلة الثانية

الحياة لحظة مـؤجلة

فكرة رائعة، تلك التي صورها لنا فيلم الوسادة الخالية قبل أكثر من خمسين عام، أن تـنام الزوجة في حجرة، وينام الزوج في حجرة أخرى، حتى لـو أنه لم يكن في حاجة إلى الوسادة الخالية، ليرى عليها صورة لوجه امرأة أحبها وحرمته أقداره من الزواج منها.. يكفيه أنه يمتلك حرية العودة إلى حجرته في وقت متأخر، دون أن تحاسبه زوجته بدافع الحب أو الغيرة أو حتى بدافع إهماله لها.. فقد نامت مها في حجرتها بالطابق الأرضي ولم تشعر بعودتى بعد الثانية من صباح اليوم الذي لم يقرر بعد أن يسقط خيوطه البيضاء على نوافذنا النائمة، والمغلقة على أوهامنا وأحلامنا المعلقة على أمل قد يتحقق أو لا يتحقق.

أغمضت عينىَّ هذه الليلة وأنا مستريح بفضل لعبة التفريغ الذي مارستها في عيادة الدكتور سامح.. بدأت ملائكة النوم تنفخ في عينى نسيما دافئًا ساعدنى على أن أسافر في اللاوعى بعد لحظات من مرواغة أفكار النهار.

مشيت خطوات تجاوزت الألف خطوة داخل الحجرة المظلمة؛ في مخزن الكراكيب الموجود أسفل السلم الداخلى، الذي ينتهى في قلب البهو الكبير بالطابق الأرضي.. داخل أحد الممرات التي تظهر في مؤخرة الحجرة وتبدو كلسان أفعى مغطى بطبقة من جمر أحمر، تستطيع أن تلمح على جوانبها خيوطًا دقيقة من النار تنتظم في مجموعات مرتبة ترتيبًا دقيقا، مع صوت أوراق شجر تتلظى واحدة بعد الأخرى ولا تستطيع أن تتحرر من خيوط النار التي تتشابك حولها. دفعنى المنظر أن ألوذ بركن قريب في الحجرة.. نظرت تحت قدمي، كانت حقيبة أوراقى التي كانت تسكن أرض

الحجرة منذ سنوات، تفتح قلبها لتكاشفنى بسر ورقة قديمة، اصفرَّت صفحتها وكادت سطورها تختفى، لكني أعرف جيدا ما كتبته فوقها منذ ثلاثين عام.. أنها سطور لكاتب إيطالى، كتب يقول (إذا كنا سنعيش؟ .. فلماذا لا نعيش الآن وفورًا).. قد كتب هو ذلك، وأنا قد كتبت إلى جوار جملته أخاطب نفسى قائلًا، إلى متى تبقين الحياة لحظة مؤجلة.. ورغم أنني قلتها كثيرا، إلا أنني لم أفعل شيئًا غير تأجيل الحياة. إلى متى؟.. لا أعرف!

من خلفى، ظهر رجل عملاق، حتى أن ظله أخافنى وصوته جلجل في المكان. التفتُ لأجد أبي، الذي ارتفعت يده وسقطت على وجهي، وقال بصوت ثابت:

- حياتك ها تنتهى، وأنت واقف مكانك.. اللي سبتهولك ضيعته، واللى أنت أتمنيته ما عملتوش.. ها تعيش أمتي؟
- أنا عايش.
- متهيألك.
- إيـه اللي ممكن أعمله؟
- أنقذ اللي باقي.. فرصتك أخيرة.. عيش.. عيش.. عيش.

أبتعد الصوت واختفت تفاصيل المكان من حولى، ووجدتني في سريرى أكرر أخر كلمات أبي (عيش.. عيش.. عيش).
فى اللحظة التي فتحت فيها عينى، كانت مها تقف فوق رأسي بملابس الخروج، تطلب منى أن أخرج معها، رفضت في نبرة هادئة وثابتة مثل التي كان يكلمنى بها أبي في حجرة الكراكيب، تلك النبرة التي تؤكد فيها لمن تتحدث إليه أن الاتفاق قد تم.. وأن ما ستقرره في كلامك سبق واتفقتما عليه أنت ومن تعلنه بقرارك.. وبالفعل استسلمت مها وتركتنى في سريرى

وخرجتْ دون أن أعرف وجهتها. فلم يكن يهمني من أمرها شيئًا إلا أن تتحرك وتتنفس في أي مكان يبعدها عنى، ويأخذها لأقصى ما تستطيع المسافات أن تبتعد بها. في تلك اللحظات أختبر روعة الحياة، لبعض الوقت.. ولكني لم أقرر بعد، أن أعيش الحياة كل الوقت.. بقى قرار طلاقها معلق على شيء لا أعرفه، ولا أعرف له وقت.. وتظل أيامى تجرجر بعضها بعضًا، وأنا أكتفى بالمشاهدة دون التحليق فوقها.

فى المساء حزمت حقيبة سفرى ولملمت أوراقى، استعدادا للسفر إلى الإسكندرية، في رحلة عمل لمدة ثلاثة أيام، أقوم خلالها بتدريب الشباب على كيفية قيادة حياتهم وجعلها واقع يتحقق.. باختصار سأعلمهم كيف يعيشون الآن وفورًا.

بينما كنت أرتب أوراقى، جلست أقلب صفحاتها لكي أتأكد أنني أعرف موضوعى جيدًا.. أنه نفس الموضوع الذي دربت عليه لمرات كثيرة، لكني أعتقد أنني أكثر احتياجًا من هؤلاء الشباب لأتعلم كيف أعيش الآن وفورًا.

فى الخامسة من مساء اليوم كنت أقف على رصيف المحطة انتظر القطار.. أجمل اللحظات هي التي تجمعنى أنا وأبطال السفر، رصيف المحطة.. محطات الانتظار.. القطار الذي يأكل الطريق ولا يشبع.. الوقت الذي يتحرك إذا ما تحرك القطار ويتوقف إذا توقف.. لحظات تتحرك ولا تقبل بتأجيل الحياة.

رأيتها تصعد سلم النفق الذي يشق رصيف المحطة.. أنها علا؛ التي تعمل بعيادة الدكتور سامح.. مرت أمامي.. ابتسمت ثم توقفت، ومدت يدًا إذا صافحتك مرة، شعرت بأن قلبك عادت له رغبته الأولى.

- أهلا علا.. على فين؟
- أنا رايحة إسكندرية يومين عند أختى.

- والدكتور سامح ها يشتغل إزاي من غيرك؟
- بالعافية وافق على الإجازة.
- القطار وصل.. وشك حلو.

دخلنا عربة القطار، ولم أكن محظوظا بقدر كبير، فلم يكن يكفينى أنها تركب معي في نفس القطار، بل كنت أتمنى من لحظة وصول القطار إلى رصيف المحطة، أن يمنحنى القدر فرصة مصاحبتها طوال الرحلة، وأن تجلس بجانبي، كنت أتصرف وكأننى أراها لأول مرة.. كيف وقد رأيتها لمرات كثيرة في العيادة، ولم أشعر بها كما شعرت بها الآن.. جلست بعيدًا عنها داخل عربة القطار.. كنت أراقبها من بين الفاصل النحيل الموجود بين المقاعد.. توقف القطار في محطته الأولى.. فجأة وجدتها تتحرك في اتجاهى.. بثقة كبيرة طلبت من الراكب الذي يجلس في المقعد الذي بجانبي أن يبادلها بمقعده.. أذهلتني جرأتها، وفرحت لها.. جلست بجانبي وعلى وجهها ابتسامة تحتفل بالانتصار الذي حققته، نظرت إليها كانت في عينيها نظرة تعلقت على وجهي، فلم أضيع وقتًا أعرف أنه مهما طال فهو قصير. فكرت في أن أقدم لها التهنئة بفوزها بمقعد الراكب الذي سلمه لها بمجرد أن أنهت جملتها، وإن كنت في الواقع أهنئ نفسى بالفرصة التي أتت على غير موعد:

- برافو عليكي.
- عشان أخدت الكرسى؟ كان لازم أعمل كدا.. لقيتها فرصة أتكلم معاك.
- عايز أقولك أني النهارده كأني بشوفك لأول مرة.. حقيقى مختلفة.

- مختلفة في إيـه؟ قالتها وهي متأكدة أنها مختلفة في كل شيء، حتى في دلال الأنثى الذي وجد ضالته فيها.
- يا ترى أبقى بعاكسك لو قلتلك أنك حلوة قوى؟

ضحكت بصوت امرأة خبيرة، تعرف مدى قدرتها على تحريك الرغبات الراكدة. إن المرأة التي تعرف أن لها هذا الدلال الذي يحرك كل ساكن لدى رجل بعينه، ولا تستخدم دلالها لكسب مساحات جديدة عند هذه الرجل، هي امرأة غبية. وأنا أثق في ذكاء علا الذي كحل عينيها السوداويين فجعلهما مثل حدائق الزيتون الأسود تلمع كإشراق الشمس وقت الظهيرة.

كان القطار يأكل من لحم الطريق، ويبلعه بلا مضغ، والوقت يمر سريعًا ولا يفكر في مجاملتى، لا يعرف أنني لأول مرة في تاريخ السفر أكره محطة الوصول، لأنها ستجعل مقاعدنا التي تلاصقت داخل القطار تفتقد إلى صحبتنا أنا وعلا، وربما جلس في مقاعدنا أناس آخرون لا تربطهم تلك القوة التي تربطني بها في هذه اللحظات التي بدأت أعيش فيها الحياة دون تأجيل.. البحيرة الراكدة تحركت، وكأن بركانًا يغلى من تحتها.. كانت تتكلم طول الوقت.. القطار يتوقف مغازلًا إحدى محطات انتظاره، ثم يتركها مودعا وينطلق من جديد دون أن نلتفت لمشاهدة التي يقوم فيها بدور البطولة في رحلة السفر.

علا تقترب منى أكثر وأكثر، كلما تحرك القطار مقتربًا من محطة الوصول.. أنها تقترب حتى تكاد تجعل المسافة بين لحم ذراعها ولحم ذراعى، أقل من الصفر.. أنفاسها الساخنة تقترب من وجهي.. أشعر بها فوق كل خلية في جسدي تشعل فيها حريقًا هادئًا.. كل شيء داخلى بدأ يستعيد حياة كانت باهتة لسنوات.. الشيء الذي جعلنى أتساءل: هل قررت علا، في الوقت الذي ركبت فيه القطار أن أدور في فلكها؟، هل هي من

هذا النوع من النساء الذي يحب أن يجرب تأثيره، لتثبت لنفسها أنها دائمًا المرأة التي لا تقف عند جرأتها، إرادة رجل.. من الخطأ أن أحاول تفسير ما يحدث.. الموقف يطالبنى بأن أفعل شيئًا واحدًا، وهو ما تقتضيه الحال.. والحال تقتضى أن أمنح نفسى لهذه الفرصة، وأجعل الحياة تتحقق، وتعلن عن نفسها في علاقة لم أرتب لوجودها بل رتبتها أقدار لا نعرف ماذا أرادت لنا.

أخرجتْ علا قطعتين من الحلوة، أعطتنى واحدة، وقبَّلت الأخرى بشفتيها الورديتين قبل أن تسقطها داخل فمها.. أما أنا فقد وضعت قطعة الحلوى التي أعطتنى، بداخل جيبى، وقررت أن أبدأ عملًا صبيانيًا، قد يختصر المسافة، ويوفر زمنًا لا أعتقد أننا نمتلك منه الكثير لنفقده في انتظار ممل، قد يستنفذ مشاعرنا التي بدأت في التحرك من أجل إنهاء حرب استنزاف قضت على كل رغبة فينا.. فكرت في هذا العمل الصبيانى لثوان خلتها دهرًا، ثم قررت الهجوم.. طلبت منها أن تخرج قطعة الحلوى التي كانت ترقص بداخل فمها، ففعلت.. ثم طلبت منها أن تمنحنى إياها، فنظرتْ مبتسمة ثم قدمت لي قطعة الحلوة وهي تعرف مقدمًا ما أنتوى فعله. مدت يدها داخل الحيز الذي يشغله جسمي، دون أن تنظر إلى أين توجد يدي؛ التي كانت قد استعدت لتلتقط قطعة الحلوى من يدها. اما عيناها التي كانت من المفروض أن تشارك في صفقة تبادل قطعة الحلوى بيننا، فكانت لاتزال تتعلق بالمعنى الذي تصاعد كالأبخرة في عينى.. التقطتُ قطعة الحلوى ثم وضعتها في فمى بعد تقبيلها دون أن التفت إلى الرؤوس التي كانت تطل من فوق حافة المقاعد المرصوصة في أدب جم. فنظرت علا أمامها وكأنها تسجل على ظهر المقعد الذي وقع عليه نظرها، تفاصيل لعبتى الصبيانية.. تلصصت إلى أطراف أصابعها وجعلتنى ألامسها في

حركة رقيقة هادئة راحت تمسح على أناملها، وإذ بي أستشعر طعما ذقته مرات ومرات وأنا أتعرف إلى الحب لأول مرة منذ سنوات هذا عددها.
جلسنا صامتين، بعد مناورة عشق كتب لها النجاح، وكأننا غير مصدقين لما حدث بيننا. كنت فرحًا بانتصارى ومهارتى في إنهاء حرب إسقاط الحصون المنيعة التي تقيمها تقاليد بالية، وزمن بنى حدوده من فولاذ، لكنه لم ينجح في أن يحجزنى في منطقة زمنية تفصلني عنها، ظنًا منه أنه يستطيع فرض عقوبته علينا فنبقى غرباء بقية الرحلة.. لكني أسقطت حصون هذا الزمان وجعلت حدوده تتلاشى.
جلست صامتًا محتضنًا فرحة غامرة بالروح التي عادت لى، وأعلنتنى من جديد رجلًا تتحرك بداخله الرغبات. ولكن ما الذي ينتظر هذا المغامر الذي بداخلى، بعد أن يمر من بوابة القلعة الجديدة التي يلفها سحرًا من نوع خاص. القلعة لم تكن محصنة وفتحت أبوابها وكأنها كانت تنتظر أن تُفتتح. ولكني أخاف مما بداخلها، سؤال بات حائرًا في رأسي.. هل أكتفى بجولة واحدة؟. هل أكتفى بنصر دون غنائم؟، أم أجهَّز نفسى لأتلذذ بغنائمى وأنعم بثروات القلعة التي أسلمت حصونها وهللت لغازيها.. الأمر يحيرنى، والقرار صعب، والوقت يركب معي القطار، والقطار لن يعطى الوقت فرصة، كما أنه لن يعطينى فرصة ثانية، وقبل أن أنزل من القطار لابد أن أرسم مع علا ملامح علاقتنا، لأربطها بي وأربطنى بها، دونما انتظار لموعد جديد نستكمل فيه قصتنا التي بدأت.. فكل شيء كان قد بدأ.. وأعلن عن اكتماله، ولا حاجة لنا لتوضيح معان أو تفسير أو تبرير لما رأيناه أنه الحياة، التي كنا ننتظر.
الوقت يمر، والقطار يأكل من لحم المسافة ويهضم، ويجوع فيأكل أكثر. ثم يتعب فيتوقف في المحطات، لكنه لا يستريح، تصده رياح أشواقنا، كي يبطئ، ولا يستجيب.. لا زلنا صامتين، نشرب بين الحين والحين رشفة من

نظرات حانية تتعلق على أكتافنا، كأطفال تلهو، فنلتقطها سريعًا ولا نتركها تشعر إهمالًا.
مر بنا رئيس القطار والتقط تذاكر السفر، وحيَّانا بابتسامة فيها من الود ما جعلها تنسجم مع حالة من الحب تحيط بالمقاعد التي نغوص فيها، حالة تستطيع أي عين تمر بها أن تفسرها وتشرح حالتها.
بعد أن تحرك الرجل إلى منتصف العربة، بدأت أتحرك في مقعدى في غير راحة، فقررت على الفور أن أذهب إلى دورة المياه في أخر العربة.. استأذنتها فرجعتْ في مقعدها لتسمح لي بعبور مقعدها إلى الممر الممدود بين مقاعد عربة القطار، مشيت شارد الذهن.. أسفًا على الوقت الذي سأضيَّعه بعيدًا عنها.. بسرعة أنهيت مهمتى في نهاية العربة ومشيت في الممر عائدًا إلى مكانى في الجنة، كنت أترنح كسكير أفقده الخمر اتزانه، فقد كانت خطواتى تسير في الممر بسرعة قاربت على السرعة التي يسير بها القطار، وما أن وصلت إلى مكانى، حتى سقطت في مقعدى بجوار النافذة وقد تجمدت جفونى واتسعت حدقت عينى من المفاجأة. وكأننى عدت إلى مكانى فأجد حقائبى قد سرقها سارق، لكن هذا لم يحدث إنما الذي حدث هو أن جنتي هي التي كانت قد سُرقتْ، وجدت مقعد علا منشغلا بالرجل الذي كان يجلس بجانبي في بداية الرحلة.. نظرت إليه مرة ومرتين لأتحقق من وجوده.. ثم عدت أنظر إلى المقاعد المرصوصة خلفى، وتلك التي بجانبي.. ثم أخرجت تذكرة القطار لأتحرى رقم المقعد المسجل بها. كل شيء كان مضبوطًا، إلا شيء واحد، لم يكن منضبطًا، كان ثائرًا، يصرخ بصوت مكتوم، أنه قطعة اللحم التي تكورت واحتقنت في الجهة الشمالية، خلف صدري.. أصابتني المفاجأة بغمة، نسيت للحظات أن أبحث عن تلك التي أخرجها الله ضلعًا من ضلوعي.. بعد برهة رفعت رأسي لأعبر رؤوس المقاعد التي أمامي، فوجدتها في المقعد الذي كان قد أحتفل بها في

بداية الرحلة، كنت أحسه فرحًا بها، لأنها عادت إليه بعد أن تركته لأجلي، وكنت حاقدًا عليه، وعلى السيدة التي كانت تجلس بجوارها وتستمتع بدفء جلستها وعبير روحها الذي لا يبخل على بقية مقاعد العربة ببعض من بركاته.

لماذا تركت المقعد بجانبي، لم ألحظ أنها تضايقت من شيء، هل قامت نزولًا على رغبة الراكب الذي بجانبي، همَّ لسانى بالتحرك من أجل صناعة طلقة على هيئة سؤال أستجوبه به، لكي أصل إلى السبب الذي لأجله سرق منى لحظات مازالت باقية من عمر الرحلة، لكني لم أفعل..

القطار يفزعنى بصفارة لم أسمعها طوال رحلته وهي بجانبي.. ثم توقف قبل محطة الإسكندرية بحوالى سبعة كيلومترات.. خمس دقائق انتظار كأنها عقاب، امتدت وانفردت ثقيلة على كتف زمن كان يرقص قبل عشرة دقائق.. أخيرًا تحرك القطار.. نظرت إليها من الفاصل النحيل بين المقاعد.. لا أستطيع أن أرى منها شيئًا، ولا حتى من ملابسها التي كانت تفوح برائحة كأنما استخلصت من لحم وردة خلقت لأجلها هي فقط.

بدأ ركاب القطار، ينتفضون الواحد بعد الآخر، كل في الحيز المسموح له أمام مقعده، ليسحب حقيبته من فوق الرف المخصص لحمل الحقائب.. قمت وفعلت مثلهم.. انتشلت حقيبتى بعنف، ودون أن أستأذن جاري في المقعد، خرجت إلى الممر، وفي حركة لم تهتم لأحد، تجاوزت كل من كان يقف في الممر، حتى وصلت إلى مقعد علا.. ابتسمت لها وبادئتها كأنني ألومها على ما فعلت:

- حصل حاجة؟
- لا أبدًا.. هو فيه إيـه؟

من خلفى كان المسافرون يتدافعون من أجل الوصول إلى باب النزول، فقد بدأ القطار يعانق محطة الوصول ويهدَّأ من سرعته حتى توقف تمامًا.. سحبت حقيبة السفر التي كانت بجانبها، ودعوتها للخروج أمامي، سارت بغير تردد نحو الباب؛ الذي انفتح لنزول المسافرين والحقائب المحملة بأشواق الوصول.

نزلتُ إلى رصيف المحطة، ثم نزلت هى، فناولتها الحقيبة، وسرقتُ مسحة فوق أصابعها، جعلتها تنتبه إلى مشاعري التي لم تنزعج من الزحام فوق رصيف المحطة.

على رصيف المحطة المزدحم بالمسافرين، وفي وسط أضواء مجهدة لا تقدر على كشف ملامح الوجوه الكثيرة التي تنتظر قطارات تأخرت، أو تودع قطارات قد بدأت لتوها رحلة سفر.. امتدت يد امرأة جميلة لم تقدر أعوامها الأربعين على إخفاء تفاصيل وجهها المشرب بحمرة خفيفة زاغت في أنسجة لحمه الأبيض الرائق.. امتدت يدها إلى علا ثم جذبتها إلى صدرها لتكتمل طقوس الاستقبال. نظرت علا إلىَّ، بعد أن خرجت من حضن أختها محملة بأشواق دافئة، وقدمتها لى:

- أختى سهام
- (مددت إليها يدي): أهلا بحضرتك.. أنت فيكِ كتير من علا
- قالت علا (مبتسمة):
- معقولة أنا حلوة كدا.. ثم أكملت التعارف:
- الأستاذ فؤاد؛ صديق الدكتور سامح.. وقابلته صدفة في القطار.
- يا ريت نشوفك عندنا شوية.
- بإذن الله.. تحبو أوصلكم.

- لا.. شكرًا.. مصطفى مستني بره.. أتفضل نوصلك.
- لا.. شكرًا اتفضلوا أنتم.
- فرصة سعيدة.. باي؛ باي!
- مع السلامة.

كانت علا تراقب حديثى مع أختها وهي تبتسم دون أن تنطق بكلمة، وكأنها خافت إن قالت شيئًا، ينكشف ما حدث بيننا في القطار.. تنبهتُ في أخر لحظة قبل أن تتركنى وتخرج من رصيف المحطة أنها لم تعطني رقم تليفونها المحمول.. ندهتها بصوت تحفظت مخارجه.. ولما التفتت، أعتذرت بأدب عن إيقافهما من جديد وطلبت رقم تليفونها.. مبررًا طلبى بأننى ربما أحتاج إلى مساعدتهما، كأى غريب حل على بلد لم يزرها من قبل.. في اللحظة التي صرحت بالسبب الذي لأجله طلبت رقم التليفون، كانت ذاكرتى ترصد عدد المرات التي زرت فيها الإسكندرية.. كتبت الرقم على الموبايل وضربت أزرارها بسرعة، لأتأكد من صحته ولأجعلها تسجل رقمى.. ثم ودعتهما وعدت أتفحص تليفونى وأسجل اسمها وأنا أردد حروفه واحد بعد الآخر كتلميذ في أيامه الأولى بالمدرسة، حتى لا أدع سببًا لسوء الحظ يسقط رقمها من حافظة تليفونى.

عشتُ الحياة لعبةً.. كسبتها حينًا، وحينا آخر خسرتْ

واعتبرت أني في الحالتين، أنا الذي بالحياةِ فزتْ

وعلى الجانب الآخر من الحياة، بشر من قش

تلظوا بنارها فأكلتهم أيامها.. أما أنا فمن أيامها أكلت

الليلة الثالثة

ألعاب الحياة

الحجرة الممتلئة بالكراكيب، تزينت على غير العادة، الأضواء تسبح في فضاء الحجرة، وتتغير بكل الألوان.. صوت الموسيقى ينبعث من الجدران.. سقف الحجرة يذوب بداخل سحب بيضاء وزرقاء تمتد في أفق بعيد مطرز بمجموعات من النجوم مرصوصة في تشكيلات بديعة.. سلم من حجر الجرانيت يتدلى من السماء، على جانبيه ألف نوع من زهور ترتفع على عيدان خضراء طرية.. بعد قليل نزلت علا على درجات السلم في خطوات رشيقة تتمايل في رقصة بديعة، ما بين صعود وهبوط، فتختفى وتظهر درجات السلم من تحت أقدامها.

وما أن اقتربتْ من أخر درجات السلم حتى مددت يدي وسحبتها فسكنت في حضنى، وسمعت صوت أنفاسها كموسيقى راقصة.. رفعت رأسها لترويني من عينيها السوداويين بنظرات ساحرة.. ابتعدت قليلًا ودارت حولى ثم جذبت يدي ومشينا في طريق طويل انتهى داخل حجرة صغيرة مغطاة بعشب أخضر ومضاءة بأضواء قمرية قوية كأنها قد جاءت من ألف قمر، وتمر هذه الأضواء عبر نافذة معلقة بالجدار.. نظرت علا قبل أن تمد يدها إلى كتاب قديم.. برفق أزالت الأتربة التي كانت فوق غلافه بنىٌ اللون، فظهرت حروف الكتابة.. رواية قديمة.. فتحت علا الرواية وقرأت عدة سطور قليلة ثم أخرجت مظروف قديم بإطار أحمر باهت.. فتحته بعد أن أعادت الكتاب إلى موضعه، وأخرجت منه ورقة من الحجم الكبير، فكت ثناياها بحرص فانفردت دون خسائر في الورقة التي بدت كصفحة رقيقة من نبات البردى، فقدت طراوتها، بفعل السنوات التي مرت عليها بداخل الكتاب.. عندما كانت تفكك طبقات ورقة الخطاب، سقط من قلبها

صورة قديمة لفتاة جميلة، نامت خصلات شعرها الأسود على كتفيها العاريتين، ولمعت عينيها كأنهما طاقة محددة بكحل أسود وخرج منهما ضوء مبهر أضاء ورق التصوير الضارب في القدم الذي انطبعت فوقه الصورة.

نظرت علا إلى الصورة وابتسمت كأنها وجدت شيئًا أخفيته عنها. تحولت الابتسامة إلى ضحكات ناعمة ثم إلى أخرى صاخبة، ودارت في مواجهتى ثم رفعت الصورة بجانب وجهها وسألتني عن الفتاة التي بالصورة.. كانت الصورة نقلا محترفا لملامح وجهها هى. نفس العين بلونها الأسود اللامع.. الأنف المدببة والمرتفعة قليلًا كمقدمة سيف بيد أحد المبارزين.. فم بشفتين ورديتين.. وجبهة عريضة كأنها أخذت من صفحة رائقة أنشقت فخرج من قلبها الفجر.. ملامح الصورة كانت هي نفسها ملامح علا.. لكن الاسم المكتوب أسفل الصورة والذي فقد بعضًا من أجزاء حروفه كان لواحدة أخرى.. كان واضح أن الاسم ليس هو اسم علا. ضحكت وضحكت، وملئ صوتها أرجاء حجرة المخزن التي بدأت مساحتها تتناقص إلى أن أطبقت جدرانها علىَّ أنا وعلا التي اقتربت منى، وأوقفت سلسلة ضحكاتها.. اجتاح الصمت أركان المكان.. اقتربت علا أكثر وأكثر حتى خلت أن المسافة بيني وبينها أصبحت سنتيمترات قليلة، ولكن في عكس اتجاهها المعتاد، حتى اختفت بعض أجزاء من جسمها بداخلى.. شاشة كبيرة اختفت خلفها الحجرة تماما، وتحركت كتابة ضوئية فوق الشاشة، قرأتها علا بصوت مسموع: جيم استارت.. اللعبة تبدأ.

فتحت عينى، على نظرات زائغة تجرى هنا وهناك على سقف حجرة بفندق يطل على البحر.. كنت قد نسيت أن أسحب الستارة فوق النافذة الكبيرة بالغرفة، قبل أن أنهى ليلتي الماضية. أعواد طريَّـة مضيئة ودافئة، كأنها فروع من شجرة مغروسة بصدر الشمس، تسللت بخفة وغسلت

عينيَّ من أثقال النوم.. تخلصت من الخيوط العنكبوتية التي نبتت في مرتبة السرير وربطتنى فيه وكأنها اصطادت فريستها بعد أيام من الجوع.. كانت الساعة مازالت تتلكأ قبل السابعة.. تحركت في الغرفة بخطوات رتيبة، متنقلا في أركان الغرفة.. أدرت التلفاز دون اهتمام للمادة الإعلامية التي ملأت شاشته.. تحركت في اتجاه النافذة.. نظرت من خلف زجاجها إلى صفحة البحر الذي اعتدت أن أترك له حفنة من ذكرياتى كلما أتيت إليه.. كم مرة أعلنته عشقى.. كم مرة شعرت أنني أنسلخ منه وأنا أتركه عائدًا إلى بلدى.. بعضًا من صور الماضى رقصت على زجاج النافذة.. أخذتني صور الذكريات إلى صور تتابعت في سرعة كبيرة عما رأيته في حلم الليلة الماضية.. مَن كانت الفتاة التي بالصورة القديمة إن لم تكن هي علا.. وكيف عادت علا إلى هذا الماضى البعيد، وهي لم تكن موجودة فيه؟

ارتديت ملابسى ولملمت حقيبة أوراقى ونزلت إلى الطابق الأرضي لأتناول وجبة الفطور التي يقدمها الفندق ضمن تكلفة الإقامة به.. بعد أقل من نصف الساعة كنت في قاعة التدريب بالطابق الأول بنفس الفندق في انتظار المتدربين، فبعضهم كان قد بدأ يتوافد على القاعة.. في التاسعة كنت قد بدأت عملى بعد أن اكتمل عدد المتدربين.

منصة التدريب تمنحنى شعورًا عظيمًا، يرفعنى إلى كرسى العرش، وأصبح صاحب المقام الرفيع.. في هذه اللحظة تحضرنى صورة الدكتورة مها نصار؛ زوجتى التي عن قصد تقلل من شأنى، ربما لأن أصحاب المهنة الواحدة دائمًا يتناحرون.. أو أنها تمارس بعضاً من رذائلها معى، فهي تتعمد التقليل من شأنى في كل شيء امتدت له يدى، وتتعامل بحماقة مع كل فكرة كانت صناعة عقلية خالصة لذهنى؛ الذي لا يتوقف أبدًا عن السباحة ضد التيار والولادة المبدعة.

خلال الراحات التي كانت تتخلل جلسات التدريب، كنت أخلو بنفسى داخل القاعة، وألصق وجهي بزجاج الواجهة المطلة على البحر، وأعاود الذكريات وتقفز في وجهي حكاية الحلم الذي دار برأسي في الليلة الماضية.

انتهى اليوم التدريبى في الساعة الرابعة عصرًا.. تناولت وجبة الغذاء مع المتدربين بمطعم الفندق.. صعدت إلى غرفتى منهكًا، تشدنى إلى السرير عدة ألاف من الخيوط العنكبوتية الملتصقة بمرتبة النوم.. بدلت ثيابى، ودخلت الفراش بعد أن أسدلت الستائر على بقية من أشعة الشمس، تفرقت على زجاج النافذة مودعة، قبل أن تنسحب داخل مياه البحر عند حافته على الجانب الآخر، وسط رقصات أمواجه التي لا تهدأ مثلنا، فتحتاج إلى قسط من راحة، حان وقتها ولا يوجد ما يمنعنى من الفوز بها. أغلقت جرس تليفونى، وأطبقت جفونى على أطراف من نوم مسالم، من هذا النوع الذي تسحبه زوجتى من تحت وسادتها دون معاندة.

فى الثامنة من مساء هذه الليلة، استيقظت على صوت ارتطام أمواج البحر يأتينى من داخل عقلى، وليس عبر النافذة المغلقة بغرفة الفندق.. أول شيء فكرت فيه وأنا مازلت في سريرى هو البحث عن رقم تليفون علا المسجل على تليفونى المحمول.. بحثت عنه ولما وجدت اسمها، أسقطت التليفون إلى جانبي كأني أدعوه لغفوة قصيرة قبل أن نتحدث إليها، فهذه المكالمة قد تحتاج إلى نشحذ طاقتنا ونستجمع كل التعبيرات التي ستنتفخ بشعور جميل لم يهدأ منذ رحلة الأمس في القطار.. بعد أقل من ثلاث دقائق سحبت التليفون مرة أخرى من جانبي واعتدلت في فراشى وضغطت أزراره ببطء كأنما كان قرارى بمحادثتها لم يستقر بعد في خلايا رأسي.

سمعت صوتها يأتينى عبر الهاتف كأنه صوت أوتار الكمان يدندن لحنًا قديمًا، جعلنى أسحب جسدي الذي أستند إلى وسادة السرير وأغوص فيه، مسلمًا كل خلية في جسدي إلى قوة الجاذبية التي أمسكت بها فدغدغتها وتركتها في حالة أشبه بحالة ما قبل النوم.. سقطت على أذني كلماتها كقطرات من نداوة الصباح:

- أستاذ فؤاد فينك؟ باين عليك مش ناوي تشوف إسكندرية الليلة دى
- إزاي ده أنا متهيألى أن إسكندرية وكورنيش إسكندرية في انتظارى.
- أكيد عندك مواعيد مع أصحابك ومعارفك في إسكندرية.
- أنا ما ليش حد هنا.
- صمتُ برهة ثم أكملتُ جملتى:
- غيركم طبعًا.
- ده احنا محظوظين أننا ها نشوفك النهارده.
- الساعة تسعة.. الوقت متأخر عليكى.
- ضحكت وعادت تقول: البحر بيسهر للصبح
- أنا ها أقوم أجهز حالًا.. تحبي نتقابل في محطة الرمل ونتحرك من هناك.
- مكان مناسب.. أنا كمان عندي ليك مفاجأة.
- مفاجأة؟!.. إيـه هىَّ؟
- فيه حد كنت تعرفه من زمان قوى وعايز يشوفك ويتكلم معاك.
- مين يا ترى.. أنا معرفش حد هنا.. غيركم زي ما قلتلك.
- لما نتقابل ها أعرفك بيه.

- متهيألى نص ساعة كفاية عشان نبقى في الرمل؟
- يمكن أحتاج لربع ساعة زيادة؟
- هنتظرك.. على الكورنيش قدام محطة الرمل.
- باي!

أنهت بكلمة وداعها (بايّ)، بدغدغة ناعمة، فسمعت ياءها ضعيفة، غير مكتملة. وكأنها خافت أن تطبق عليها شفتيها، فلا تصلنى بسحرها الذي يتدفق أشواقا ورقةً ممزوجةً بعصير أنوثتها.

أسرعت إلى دولاب الملابس.. اخترت ملابسى بعناية.. أمام المرآة، توقفت أكثر من مرة لأتأكد من أنني صففت شعري، فأخرجته في مشهد لائق، دون أن يفارق تنسيقه روح شابة، ربما لعبت دورًا مهمًا في لقاء الليلة مع علا.

فى طريقى إلى المكان الذي حددته للقاءنا، كنت أفكر في الشخص الذي سيأتى مع علا لمقابلتى، مَن هو؟ ومن أين عرفني، ومتى؟.. وقفت إلى جوار السور القصير الذي يمتد يسارًا، ويمينًا على كورنيش البحر، ورحت أراقب أمواجه وهي ترتطم بالأحجار الكبيرة المرصوصة في غير نظام، وكأنها مجموعات من النساء تفرقت على الشاطئ، وقد أخفين نصف أجسادهن في ماء البحر وتركن نصفها الآخر المكشوف لتغسله الأمواج التي لم تستحى من رؤية أجسادهن العارية، تحت إضاءة خافتة لا تكشف كل تفاصيلها. كانت رائحة البحر تفوح مع هواء بارد أتى به شهر أكتوبر، ليسحب من جلد أجسادنا أخر ما تبقى من لسعات كرابيج شهور الصيف

الذي استفحل فسرق من الربيع بعضًا من أيامه، ولم يكتفِ فمد يدًا غاصبة فأخذ بعضًا من أيام الخريف الجميل.

التفتُّ على غير ندهة وبدون إشارة، لأجد خطوات نسائية تمشى في دلال فوق كعوب حذاء بلغت أعوام المراهقة، فاستطالت بشكل ملفت.. رفعت عينى إلى وجه القادمتين، في اللحظة الأخيرة قبل توقفهن أمامي.. كانت علا ومعها أختها سهام، التي جاءت على غير صورتها التي رأيتها عليها بالأمس في محطة القطار.. امرأة كاملة النضج.. عكصت شعرها فكان كموج أسود، طار خلف رأسها وحول وجهها، كأنه يستجيب لدعوة بالرقص عرضتها نسمات البحر التي خرجت توًا للاحتفال بحضورهما.. مدت يدها مسلمة عليَّ في وقار، سبقت به علا التي وقفت على الجانب الآخر منى، وكأنها تختفى من المشهد لتترك لأختها الفرصة كي تقدم نفسها بالطريقة التي تحبها.. ثم عادت علا وقد قررت أن تخرج المشهد بطريقتها، فقالت علا بصوت حمل إلىَّ تصريحًا بأنها الصغيرة بين اثنين يكبرانها بأعوام؛ هما أنا وأختها:

- أستاذ فؤاد.. أحب أقدَّملك سهام خالد.
- حصل لي الشرف أمبارح على المحطة.
- مش ملاحظ أن فيه اختلاف.
- أكيد.. النهارده الصورة أوضح، ولو سمحتلي مدام سهام، أقول إن الصورة النهارده أجمل.
- مش عايز تقابل الشخصية اللي تعرفك من زمان؟
- أيوه صحيح.. فين هيَّ؟

- سهام أختى (وأشارت بيدها) ثم أردفت تقول:
- هيَّ دى الشخصية اللي تعرفك من زمان.
- أنا متهيألي احنا اتقابلنا فعلًا قبل كدا.. بس ده إحساس بيجينى لما بقابل ناس أنا بستريحلهم، حتى لو بقابلهم لو أول مرة.

لم تنطق سهام بكلمة واحدة، بل كانت طول الوقت تراقبنا وهي تبتسم ابتسامات تختلف بين ضيِّقة وواسعة، فتنط أسفل وجنتيها غمازتان ساحرتان، تصطادك بهما دون أن تقاوم.

طلبت منهن أن نعبر الشارع الموازى للكورنيش لنجلس في أحد الكافيهات التي نبتت كعنقود العنب، متجاورة في دفء، يشعرك بألفة خاصة.. بعد أن جلسنا في واحد من هذه الكافيهات.. وطلبنا أنواع مختلفة من المشروبات، بدأنا مرة أخرى في حوار الفوازير الذي كان قد بدأ على الكورنيش، لمحاولة تذكر علاقتى بسهام.. فجاة تفتقت ذاكرتى عن قصة دارت أحداثها في الإسكندرية قبل أكثر من عشرين عام.

أذكر أنني في هذا اليوم منذ عشرين عام.. كنت مسافرا إلى الإسكندرية في رحلة دامت خمسة أيام مع مجموعة من زملاء العمل.. كانت سهام تجلس إلى جانبي في مقعد قطار، يشبه إلى حد كبير نفس المقعد التي كانت تجلس فيه علا بالأمس.. كانت عائدة إلى بيتها بالإسكندرية تحمل شهادتها الجامعية.. تغمرها سعادة من هذا النوع الذي لا يتوقف عن محاولة الإعلان عن نفسها.. تكلمنا وتجاذبنا أطراف حديث عن المستقبل والآمال الكبار التي نعلقها عليه.. تواعدنا.. وتقاربت أحلامنا وأمانينا.. كانت المرة الأولى التي أتعرف فيها إلى حقيقة الحياة التي نحياها، رغم خبراتى القليلة مع هذه الحياة.. إلا أني تعلمت أن للحياة وجهين، وجهها الجاد الذي يتعامل

معنا بخشونة.. ويفرض علينا أمورًا لا نقبلها ويختار لنا طرقًا لا ترضينا، أما الوجه الآخر فأننا نرى من خلاله الأشياء والعلاقات والأحداث عبارة عن ألعاب مصممة بدقة كبيرة، وتعمل طبقا لقواعد يفرضها أناس أذكياء، هم الذين يقررون كيف تسير اللعبة ومتى تبدأ ومتى تنتهى ومَن يخسر ومَن يفوز، وكنت قد قررت في وقت مبكر من حياتى أن أدرب نفسى كي أصبح واحدًا من هؤلاء الناس الذين يفرضون القواعد لألعاب الحياة.

قضينا الأيام الخمسة ما بين شوارع الإسكندرية والكورنيش ومياه البحر، شاهدنا الفجر يولد فوق الرمال الباردة، وودعنا الشمس وهي تسقط عند الغروب في الجهة الأخرى من البحر، وسحرتنا إطلالة القمر من السماء، وهو يسقط ضوئه فوق وجوهنا، ونحن نستلقى بأجساد متعبة على رمل الشاطئ بعد نهار طويل أنهكتنا ساعاته. كانت سهام ترافقنى أنا وزملائى أغلب الوقت، وكانوا جميعهم يلمحون في علاقتنا مستقبلًا كان يرسم قصوره في خيالاتنا.. في يوم من هذه الأيام القليلة التي قضيتها معها، التقينا في وقت الظهيرة وكان ذلك في أول سبتمبر.. مشينا فوق كورنيش البحر قرابة ثلاث ساعات والشمس فوق رؤسنا، لا نشعر بها، ألا بين الحين والآخر، فننزل إلى الشاطئ ونختبأ فوق بقعة من ظلال كونتها مظلة نساها أحدهم مفرودة على الشاطئ.. ندخل إلى بقعة الظلال التي كان قد فرشها لنا أصحابها، لنعلن من فوقها مراسم زفافنا إلتي دارت أحداثها في رؤوسنا، نهدأ فوق رمالها وقد تلاصقت أجسادنا عن نية مبيتة، وما أن سكن التعب حتى تلهث يدي بحثا عن أصابعها.. حين وصلت إليها، وشعرت بسخونتها، جعلت أمسك بحفنة من الرمال وأسكبها فوق يدها، ثم أعود فأخلص أصابعها من حبيبات الرمل واحدة بعد الأخرى في خشوع مملوك عيَّنه السلطان من أجل المحافظة على طُهر أصابعها البيضاء

الملفوفة كأجساد الملائكة.. ثم أجدها فرصة لأغطى بيدى، يدها البَضَّة التي نامت كقطة بيضاء فوق الرمال، وبقبضة حانية أعصر لحم قطتى، فتموء في خجل جميل، وتنظر إلىَّ بنظرات مشجعة ثم تعود إلى صفحة البحر أمامها وتلقى بنظراتها وتدعها تسبح مع الأمواج التي تتراقص في حفل الزفاف الذي بدأت مراسمه على الرمال، ومازالت أحداثه تدور في رؤوسنا.

عندما رأيت سهام في القطار، شعرت أنها عجينة امرأة يمكنها أن تختمر فتصلح موضوعا للحب، وكانت هذه لعبتى، فقررت أن أداعب أحلامها الصبية، وجعلتها تتعلق بسحب رسمتها لها، كانت تحلق بها في السماء، ورسمت لها مملكة وألبستها ثياب ملكة.. توجتها بكلماتى، فلما صارت ملكة، أصدرتْ مرسومها الملكى بمنحى قلبها.. وقبل أن أترك الإسكندرية عائدا، رسمت معها مخططًا يوضح لها كيف سأجد المال للارتباط بها بشكل رسمى، ووجدتني أتورط معها في حلم لا أملك منه أكثر من الحبر الذي رسمته به على أوراق مخططى، وكتبت به عدة خطابات، حملتها بأعذار أكثر مما حملتها مشاعر.. وخرجت من قصتى مع سهام بصفحات خطاباتها التي رافقتها صورة ضوئية لوجهها الجميل يضحك فوق جسد أبيض صنعته يد ماهرة، كادت عظامه أن يطولها اللين من فرط ما قد وهب لحمها من طراوة.. سنوات كثيرة ومازالت أوراقها مدسوسة في ركن خاص بالحجرة المغلقة على ذكرياتى.. أخفيت به كل ما عز علىَّ من أيام لن تعود.

دارت كل هذه الذكريات، وتدافعت صورها في رأسي، وأنا أتحدث إلي علا وسهام في الكافيه، نضحك حينًا، وحينًا أخرى أحاول أن أعرف شيئًا عن أخبارها، وعن الدكتور مصطفى الذي ظهر عند فقرة مناسبة من روايتنا ودخل في أحداثها، لأجدها ذات يوم تقرر الانفلات من لعبتى.

كانت مضطرة أن تنزل على رغبة أهلها الذين فرضوا عليها الزواج من رجل مناسب، في الوقت الذي قدمت لها جملة أعذار وطالبتها بحصة كافية من الشفقة والرثاء لظروفى التي أجبرتنى على الحرمان منها. كانت اللعبة تسير وفقا للقواعد التي رسمتها، ورضيت بنهايتها لأني كنت منذ بداية علاقتى بها وأنا أعرف أنني لن أستكمل قصتى معها.. أنا فقط أستمتع بفوزى بها.. أستمتع بحالة الحب التي عشتها وكان وقودها امرأة معجونة بخمير الحب؛ مثل سهام، بأشواقها التي كانت كافية لتطلق طاقة الحياة في حالة العشق التي أدمنتُ العيش فيها .. وانتهت مراحل لعبة دون أن أفقد احترام بطلتها.. واكتفيت بتسجيلها في دفتر ذكرياتى.. أعود إليها من وقت لآخر مثلها مثل كثير من أبطال ألعابى، لأطمئن أنني مازلت أمتلك حق دخول ألعاب جديدة لكي تستمر الحياة.

مرت أكثر من ساعة ونصف الساعة مع علا وسهام، نسيت خلالها الشعور الذي ولد حديثا بالقطار ليلة أمس، أو اللعبة الجديدة التي كانت قد بدأت مع علا. نظرت سهام إلى علا.. تفحصت ساعة يدها، ثم طلبن منى أن ننطلق قبل أن يتأخر بنا الوقت.. ركبنا معا أول تاكسى مر أمامنا، دون أن نودع الكورنيش الذي لم نتذوق به طعم الذرة المشوى، هذا الطقس الذي أمارسه كل مرة آتى فيها إلى هنا، فقد فرض مجيئ سهام ملامح الرسمية على ليلتنا، التي أعتقد أننا سنستكمل طقوسها غدًا ولكن مع علا وحدها،

فكفى على سهام ليلة واحدة، إضافة إلى خمس ليالٍ فازت بها منذ عشرين عام.

بعد أن أوصلتهما، عدت إلى غرفتى بالفندق ولم أفعل شيئًا سوى إغلاق مصابيح الغرفة التي كنت قد تركتها مضاءة وأبقيت على واحد منها بداخل الحمام الذي توسط الحجرة، في مقابل السرير الذي نمت فيه، دون أن أقلقه بحركات كثيرة قبل النوم.

أصغر جزء في مادة الحياة.. هو اللحظة

وإن تعيش اللحظة، فعش هنا.. وفوق رأس الوقت.

فمن كان معك هنا.. والذي وجدتُه الآن

فهو الذي لك.. وهو ما ملكتْ

الليلة الرابعة

الحياة لحظة.. نولد عند بدايتها.. ونموت على أطرافها الأخيرة.. ثم تتجدد

داخل الحجرة، أسفل السلم في البهو الكبير بالطابق الأرضي، كانت الحجرة تبدو مثل قاعة السينما أو المسرح.. وأنا أقف وظهرى إلى شاشة كبيرة بعرض الحائط.. كنت أواجه عدد كبير من المقاعد اصطفت بحيث كان الواحد خلف الآخر، وفوق كل مقعد جلست امرأة، لا تستطيع أن تتبين منها غير وجهها، تنقلت بين وجوه الكثيرات التي كانت الواحدة فيهن ترفع رأسها من خلف الآخرى حتى تتمكن من رؤية شاشة العرض التي أمامها.. كان طابور النساء فوق المقاعد ممتد في عمق الحجرة، دون أن ترى نهايته.

أدرت جسمي بزاوية خمسة وأربعين درجة، ونظرت إلى الشاشة فوق الحائط، وبريموت كنترول في يدي أدرت العرض، فامتلأت الشاشة بصورة متحركة للمرأة التي جلست في المقعد الأول.. كانت المرأة تقترب من رجل يشبهنى ولكنه شاب في العشرين.. الموسيقى ترتفع ولكنها هادئة المرأة تقترب من الشاب، ينظر إلى ساعته ثم إليها، كأنه يعلن لها عن شيء حان وقته.. تبتسم.. يقترب من شفتيها.. يعلق قبلة.. ثم تختفى المرأة في بقعة مظلمة في وسط المكان الذي كان كحلبة للرقص.. الشاب ينسحب من المشهد.. المرأة التالية في طابور النساء اللاتى جلسن يتفرجن، تخرج وتتحرك في اتجاه الشاشة، وكأن أحد أقدامها يتحرك فوق كعب حذاء أقصر من كعب الحذاء، الذي يتحرك فوقه قدمها الآخر، فتميل بخطواتها بين يمينها وشمالها وكأنها لاعبة سيرك محترفة ترقص فوق حبل مشدود عن أخره، فوق بحيرة من نار. وما أن وصلت إلى قلب الشاشة وكادت

تسقط، حتى التقطتها أيدي هذا الشاب الذي يشبهنى، بعد أن ظهر فجأة في قلب شاشة العرض.. الشاب الذي يشبهنى يقرأ كلمات تعبر كطير ملون بينه وبين المرأة التي سقطت في حضنه:

- الحياة لحظة.. نولد عند بدايتها.. ونموت على أطرافها الأخيرة.. ثم تتجدد.
- (المرأة تقترب بشفتيها) وتهمس في أذني:
- أنا لك.. أعيش لحظتك.

أقبّلها .. تفتح فمها.. تتكلم بكلمات ملأتها النشوة، أجعل طرف لسانى يتحرك فوق طرف لسانها الذي يدور في دوائر ناقصة.. نحترق رغبة.. نكاد نذوب في قبلة يخنقها شعور بالذنب.. تبتعد عنى.. تبتعد أكثر.. أشعر أن اللحظة قد انتهت.. وانتهت معها حياة جميلة عشتها، ولكننى لا أعرف كم زمنًا قد ملأ عمر هذه اللحظة.. المرأة التي كانت معي تسقط من الشاشة.. ثم تحاول من جديد الوقوف على قدمين جاهدتا كي يحملانها، ثم تحركت إلى مقعدها أمام الشاشة.. في لحظة كانت المرأة التي جلست خلفها تتحرك في اتجاه الشاشة بعد أن سحبتنى معها من أمام طابور النساء ودخلنا معا إلى قلب الشاشة.

من أخر طابور النساء في بقعة باهتة من الضوء التي ترامت خيوطه في أخر الحجرة، وقفت علا.. ثم تحركت.. كانت من خلفها امرأة بلا وجه تدفعها نحو شاشة العرض.. علا تتحرك ولكن بصعوبة.. المرأة التي تختفى خلفها.. تدفعها.. ترفع صوتها.. تشجعها على التحرك بخطوات واسعة.. علا تقترب من الشاشة.. المرأة التي خلفها اختفت تمامًا.. علا وقفت وحدها أمام الشاشة.. كانت مترددة.. اقتربتُ منها.. أمسكتُ بيدها..

فجأة أصبحنا في قلب الشاشة، نطل على طابور النساء اللاتى وقفن في نفس أماكنهن أمام المقاعد المرصوصة في طابور طويل.. كل امرأة تمسك في يدها بورقة بيضاء كبيرة غطت بها وجهها.. حبر أزرق شكل حروفًا.. الحروف تقترب من بعضها فوق الورق الأبيض.. ثلاث كلمات فوق اللوح الأبيض تكونت من الحروف المتطايرة.. قرأت الورق الذي غطى وجوه النساء.. كانت نفس الكلمات الثلاث، فوق كل الأوراق تقول نفس الشيء:

- هى لحظتك الأخيرة.. هي لحظتك الأخيرة.

الضوء يزداد شحوبًا.. المكان يتحرك من تحت أقدامى.. الحجرة تتغير ألوانها ألف مرة.. عقارب ساعة تدور بسرعة كبيرة.. عقارب الساعة تسقط من مكانها.. عقارب كبيرة وصغيرة بأعداد تفوق أرقام العد التي أعرفها.. النساء اللاتى كن معي في الحجرة تظهر وتختفى.. أبحث عن علا. لا أجدها.. أصرخ بصوت غير مسموع.. علا.. علا.

رنة منبه المحمول، تعيد دورتها الثالثة قبل أن أتحرك في سريرى، وأنا لا أزال أردد على مسامعى -بصوت لا يسمعه أحد-، اسم علا. وكأنه يأتى عبر نفق ضيق طويل.. فتحت عينى.. التقطت تليفونى.. بحثت على شاشته عن الأرقام التي تشير إلى الوقت.. كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة بعشر دقائق. هذا هو النهار الأخير الذي تبقى من أعمالى الذي أقوم بها في الإسكندرية.. سوف تنتهى أعمالى في الواحدة ظهرًا.. درت في غرفتى بالفندق في المسارات التي حفظتها منذ الليلة الأولى هنا.. قبل أن أترك الحجرة، ورغم أن الساعة كانت لم تتجاوز التاسعة صباحًا، إلا أنني ضغطت أزرار التليفون دون تفكير، وكما توقعت كانت علا مازالت في فراش نومها، ولم أقبل منها أي كلمة اعتذار عن دعوتى لها بقضاء وقتها معي والمقترح له أن يمتد من بداية تناول وجبة غذاء بروائح البحر في أحد

المطاعم، وينتهي آخر الليل. فهي ليلتى الأخيرة بالمدينة التي تنام وتصحو على تراتيل البحر.. بالطبع قد اكتفيت بدعوتها على الغذاء في الثانية ظهرًا، أما الساعات التي سأقضيها معها بعد ذلك، فسوف أقطعها دقيقة بعد الأخرى كما يفعل بائع شرائح الشاورمة، فالموافقات لابد أن نأخذها من أصحابها على شكل شرائح، واحدة بعد الأخرى حتى نتجنب رفضهم، هذا ما أعلَمهُ داخل قاعات التدريب.

مرت الساعات قبل موعدى معها، ثقيلة.. وفي الثانية كنت في انتظارها. حضرتْ علا، وكأنما طاقة أنثوية مأخوذة من كل النساء قد دارت حول جسدها في هالة غير مرئية. اقتربت منها.. أخذت أصابعها بين أصابعى وكأنى تلقيت هبة سمائية من لحم الملائكة.. جلسنا إلى طاولة فصلت أجسادنا، وبقينا كل واحد في مقابلة الآخر، ينتظر أن تذوب المادة التي صنعت منها الطاولة، وإن كنا لم نلتفت إلى ماهية هذه المادة، ولم نلحظ أي شيء آخر مما حولنا. كل ما كان يدور في أحلام يقظتنا، هو كيف سنقترب، أكثر وأكثر حتى تتلامس أجسادنا.

قبل أن تأتينا وجبة الطعام التي طلبناها.. تحركت بسرعة ولد في السادسة عشر، ليبدل مكانه في ملعب الباسكت بول ويلتقط كرة يتوقع لها أن تسقط داخل الشبكة في الرَمْيَة القادمة.

فى ثوان كنت أجلس إلى جانبها.. أستمتع بملامسة ثيابها التي ترقص أطرافه كردة فعلٍ على نسمات جاءت بعبق الشاطئ تشاركنا وجبة الغذاء.. تناولنا وجبتنا وأخذت كوبًا من الشاى وأخذت هي مشروبًا من عصير المانجو الفريش، أكرمها عامل المطعم ومزج به قطعًا من مكعبات المانجو. شبعت أجسادنا، وقبل أن تترنح في مقاعدها، بين روائح الطعام

التي تجذبك وأنت جائع وتطردك بعدما تشبع، قررنا أن نطلق مزيدًا من الطاقة في أجسادنا.

خرجنا من المطعم وسلمنا خطواتنا، إلى الكورنيش الذي استقبلنا وقد أصغى في شغف، ينتظر منا أن نحرقه بلهفتنا التي لاحظها في لقاءنا المحموم.. طلبت منها أن نجلس على الكورنيش نراقب الشمس وهي تسقط عند الحافة البعيدة من ماء البحر.. كنت أراقب البحر وهي كانت تستجمع طاقتها لتغزو قلعتى:

- أنا كدا ها أغيـر من الشمس.
- هو فيه شمس بتغير من الشمس.
- بس أنا مش شمس .. أنا واحدة بتدور على حضن يدفيها.
- أنا متهيألى أن أي حضن يفرح بأنه يضمك جواه، ويتمنى لو دوبك بين ضلوعه.
- مش عارفة أنا إزاي بسرعة كدا... (ابتلعت كلماتها ولم تنطق بها).
- بسرعة كدا أيـه؟ كملى عايز أسمع الكلام اللي جايْ
- يعنى.. بسرعة استريحتلك وصارحتك باللى جوَّايا.
- أنا كمان حسيت أني لقيتك.. بعد ما كنت بدوَّر عليك من زمان.. علا.. أنا.. أنا بحبك.

نطقت بها.. ولم يكن النطق بكلمة أحبك مشكلة بالنسبة لي في أي وقت من مراحل عمرى التي امتلأت سنواته بقصص الحب الملتهبة.. ذات البدايات السريعة.. التي لا تنقصها مهارة في التعبير، والوصول الجميل إلى اللحظة الأولى في الكشف عن أسرار التقارب الشغوف مع أرواح وأجسام من

نحب. الغريب أن علا لم تحاول أن تحدثنى في أي شيء يتعلق بقصة الماضى التي لعبت فيها سهام دور البطولة.
كان الليل قد بدأ يشق السماء المعلقة فوق البحر، ويزحف في أدب شديد فوق رؤوسنا، ولا ينسى أن يذكرنا بأن ما تبقى من عمر ليلتنا لا يكفى لنبادل بعضنا بكل ما لدينا من إحساس جميل.. طلبت منها أن نختفى بمشاعرنا التي ولدتها قلوبنا منذ دقائق ثلاثة، في أحد الكافيهات التي تمتلأ بالنساء والرجال دون أن تدور أعين المراقبين بين الجالسين في مقاعدهم، تتفحصهم وهم يلتقطون أطراف حديث ناعم، أو يلتقطون أطراف دخان الشيشة بطعم التفاح والنعنان واللبان.. ما أجمل رائحة الدخان المنبعثة في أرجاء المكان، دائمًا ما تعود بي هذه الرائحة إلى ذكريات جميلة مرت بي في أيام كنت أتخيل أنها لن تمضى أبدٌ.. فأنا غير معتاد على أرتياد الكافيهات، فزيارتى لها يكون على فترات متباعدة تصل إلى بضعة شهور.
كان دخان الشيشة يدور في حلقات بيضاء ضبابية فوق رؤسنا.. تلتصق علا بكتفى حينًا وحينًا تتأبطنى في غير كلفة، ثم تمد يدها إلى لايٌ الشيشة الذي في يدي وتجذب من دخانها ما يملئ رئتيها الصغيرتين، فتعود وتزفر الدخان فيملأ جلستنا. الطريقة التي تتعامل بها مع الشيشة تجعلك تدرك على الفور أنها امرأة خبيرة، تعاملت مع الشيشة مرات كثيرة، رأسي لا تصدق أنها نفس المرأة التي تجلس خلف المكتب في عيادة الدكتور سامح.. أنها مثلى تقسم حياتها إلى لحظات، وتعرف كيف تولد عند بداية كل لحظة، ثم بكل رضى تقبل أن تموت على أطرافها الأخيرة، ولا تمانع في أن تتجدد حياتها بداخل لحظة أخرى قد تكون معي أو بدونى، وفي كل لحظة تتجدد حياتها، تولد وتموت وبين الموت والميلاد تعيش ملء الحياة. فنحن لا نملك من الحياة أكثر من اللحظة التي بين أيدينا.. أن اللحظة التي مضت أخذت معها كل مالا نقدر على إعادته إلى لحظتنا الجديدة التي ولدتنا الآن،

واللحظة التي ستأتي من ظهر المستقبل لا نعرف إن كانت لنا أم أنها ستكون لغيرنا.. هذه القناعة كانت تساعدني على أن أعيش حياتى كلحظة، أملك فيها ما بين يدىَّ، وما بين يدي في تلك اللحظة كانت علا.. فنسيت كل شيء وكل بشر غيرها، نسيت في هذه اللحظة كل شيء، إلا أنني حبيبها هي وحدها.. أشعر كأننا وجهين لعملة واحدة هي اللحظة.. اللحظة التي ولدتنا دون ترتيب أو قصد.

فى وسط القاعة المستديرة في الكافيه، كانت فرقة موسيقية من الشباب والبنات يتبادلون الغناء ما بين جديده وقديمه. توقفت الموسيقى الصاخبة لإحدى الأغنيات الحديثة، ثم وقفت فتاة بوجه أبيض رائق استدار مثل وجه قمرى قد تكور بدرًا منذ لحظات.. كانت موسيقى الأغنية هادئة، وراقصة في نفس الحين، تأخذك إلى أبعد الأماكن وأقدم اللحظات التي تختبئ بها ذكرياتك.. هذا ما فعلته بي كلمات وموسيقى الأغنية التي تغنيها الفتاة صاحبة الطلَّة القمرية، بصوتها الذي يأنسه شعورك.. نسيت علا التي كادت تختفى بداخل جسدي اقترابًا، كقطة تبحث عن الدفء في ليلة قارصة البرودة.

ذهبت بي كلمات وموسيقى الأغنية إلى ليلة كشفْ الأسرار قبل أكثر من خمس سنوات، حين جعلت مها نصار -قبل أن تتزوجنى - تضرب عرض الحائط بأشواقها وحبها الأسطوري لزوجها محسن.. كانت صاحبة مبادئ، تهتم بأحوال الناس، ومشاعرهم الداخلية، تقدس العلاقات.. تقدر صداقتنا وتهبها حق اللجوء، فأتجول في أسرار علاقتها بزوجها حينًا، وحينًا آخر تمنحنى قليل من الثوانى بين أحضانها، كحصة عذرية مقدسة لا تشوبها أية اشتياقات جنسية.. هبَّة تفرضها طقوس الصداقة من أجل أن تمنحنى بعض السعادة كما كانت تعتقد.. كنت أفرح بهذه الثوانى القليلة الخالية من

الكلوسترول.. ولكننى قررت بعد تفكير أن أجعل هذه الأحضان العذرية، أحضانًا كاملة الدسم، حتى لو جعلتْ شراييني تتوقف تمامًا عن العمل.. ولكن كيف أقنع صاحبة المبادئ – مها نصار - بالتخلى عن مبادئها. فكرت ووصلت إلى مفهوم اللحظة، أحد إبداعاتى الفكرية.. أنها اللحظة التي تحمل بداخلها كل مقومات الحياة.. ومفهومى عن اللحظة، أننا لا نملك من حياتنا سوى اللحظة التي تتشكل من هنا والآن.. فما نملكه هو ما بين أيدينا الآن، وهنا.. أي في المكان الذي نكون فيه نحن ومن معنا والأشياء التي لنا في هذه اللحظة.. اللحظة التي خلقت لنا وتكونت في الزمان والمكان من لحم (الآن وهُنا).

وفى ليلة كشف الأسرار وأنا أجلس مع مها في حجرة مكتبها بمؤسسة الحياة للتدريب والاستشارات، وبعد أن أنهت معي حضنًا دافئًا وخالى من الكلوسترول، تحتمه فروض الصداقة أحيانًا.. كنت قد جذبتها بعنف رقيق لا يخلو من رغبة، وضممتها إلى صدري، ودغدغت لهفتى إليها فى المسافة المنعدمة بين صدري ونهديها اللذين كانا نائمين كفردتين حمام، حتى أزعجتهما أنا برغبتى المحمومة. ارتبكت مها.. اقتربتْ وابتعدتْ، لا يسندها قرار. فلا رغبة قوية تسلمها لحضنى، ولا شبع كامل في حياتها الزوجية، يغنيها عن الوقوع في العش الناعم الذي نسجته لها في المساحة المشتعلة بين ضلوعي في هذا اللقاء.

انتهت اللحظة وعادت إلى مقعدها خلف المكتب الذي بدأت تلملم أوراقه المبعثرة فى نظام لا يخلو من لمسة أنثوية، وكأنها تلهو أمام صورة زوجها المتكئة على جانب من سطح المكتب.. رفعتْ عينها من على القرص الزجاجى للمكتب ورمقتنى بنظرة جاهدتْ أن لا تسقط خلف أهداب ترتعش خجلا، وقالت بصوت سحقت مخارج حروفه:

- أنت ليه عملت كدا؟
- أنا حسيت أني محتاج ألمسك.
- أنا حضنتك لما حسيت أنك محتاج لحضنى، كنت فاهمة أن الأصدقاء ممكن يبقى بينهم مشاعر جميلة من غير أي رغبات.. ساعات بيبقى الواحد محتاج جسم دافئ يلمسه.. فأديتك الفرصة دى، بس من غير أي تفكير غلط ممكن يشوه معناها.
- أنا فعلًا كنت محتاج ألمسك.. ولسة عندي الإحساس ده.
- فؤاد أنت خلتنى أندم أني عملت معاك كدا.
- ليه؟
- لأن إحساسك وضمتك ليَّ.. ما كنتش بريئة.. وده فيه خيانة لمراتك، وأنا إن وافقتك، أبقى بخون محسن جوزى.
- هما مش معانا دلوقت
- عشان مش معانا يبقى اللي عملته مش خيانة؟!
- أنا بحب أعيش اللحظة.
- أنت زي ما قلتلك قبل كدا.. أنت مبدئك أنك ما عندكش مبدأ.
- أنت مش فهمانى يا مها.. أنا بحب أعيش اللحظة.
- يعنى إيـه؟
- اللحظة اللي نملكها، بمعنى أننا نعيش دلوقت ونعيش هنا وبس.. أنا وأنت في اللحظة دى ما نملكش غير بعض، ما نملكش غير اللي في المكان ده.. في الأوضة دى وبس، ودلوقت وبس.
- مش فاهماك

- يعنى نعيش دلوقت.. نعمل كل اللي احنا عايزين نعمله.. اللحظة دى بتاعتنا.
- واللحظة اللي بعد كدا؟
- مين يضمنلك أنها ها تيجى؟
- يعنى عايز تعيش الحالة.. أنت بتحب تعيش الحالة، وحالتك في اللحظة دى أنك.. بتحبنى.. مش كدا؟
- أيوه بحبك.
- وبعدين؟
- خلى بعدين لما ييجى بعدين.
- ثم تحركتُ نحوها، بطريقة كنت أبدو فيها وكأنى لص يقترب من ضحيته، أو صياد محترف يتحسس خطواته من أرنب برى.. رجعتْ بظهرها إلى المقعد وغاصت فيه:
- أرجع مكانك.
- عايز أضمك لصدري (قلتها وأنا اقترب منها أكثر، حتى لمست كتفها، وجذبته بعنف رقيق)
- ها تعمل إيـه؛ يا مجنون!

اقتربت بأنفاسى من وجهها.. سقطت قبلاتى على قطعة واحدة من شفتيها.. ثم التقطت الأخرى بين رحى شفتىَّ.. تذوقت فيها طعم عصير العنب المختمر.. ابتعدتُ بضعة سنتيمترات لأراقب ملامح وجهها بعد أن سرقت قبلتى الأولى.. نظرتْ إلىَّ.. ابتسمتُ لها.. كانت نظرتها تبيعنى القبلة الثانية.. فاقتربت منها وتوجت شفتيها بقبلة ثانية وثالثة، ذوبت شفتيها

بحرارة قبلتى، مثل قطعة سكر في فنجان من الشاى المغلى، تستطيع أن تشم حلاوته في الأبخرة المتصاعدة فوق حافته المستديرة.

- أنت مجنون!
- مجنون بيكي (كنت مازلت واقفًا إلى جوارها).
- أقعد مكانك.. كفاية كدا وخلى اللحظة المجنونة دى تنتهى.
- نفسى آخدك في حضنى.. نفسى ألمسك كلك.
- أنا هَمشى.

قفزت من مقعدها.. وقفت ملتصقة بمكتبها.. اقتربت منها وجعلتُ أضم كل خلية في جسدها إلى جسدى.. بنيتُ جسورًا بين شراييني وشرايينها.. ذابت الأجزاء الصغيرة للمسافة الفاصلة بيننا، تلاصقت خلايانا.. تداخلت.. المسافة بيننا أصبحت أقل من الصفر.. انفلتت من حضنى، بعد أن منحتنى شهادة تقدير، بأنني مهندس المسافات السالبة.

نزلت سلم المكتب وأنا أطير فوق درجاته، غير مصدق انتصاراتى التي حققتها هذه الليلة، مها؛ المرأة المجنونة بزوجها.. التي تقدس علاقتها به، اليوم سقطت في أحضانى.. قبلت أن تملأ لحظة من لحظاتي.. لحظة ولدْنا معا أنا وهي عند بدايتها، ورقصنا ونحن نموت على أطرافها الأخيرة.. اليوم كسبت اللعبة.. أنا أفرح باللحظات الرائعة التي أفوز فيها.

عدت من ذكرياتى بوعىٍ مشوش إلى المرأة التي تأبطت ذراعى في الكافيه، كانت علا بجانبي تغنى بصوت مسموع مع الفرقة الموسيقية.. نظرتُ إليها.. همستُ لها.. سألتها عن اللحظة التي نعيشها معا.. علا كانت مجهزة لتعيش معي اللحظة، وتكسر أي قيود تحول بيننا وبين لحظتنا

الجميلة، كما تتكسر موجات الماء على الصخرة النائمة بجانب الشاطئ.. طلبت لها شيشة تفاح، بعد أن شاركتنى في الشيشة التي كنت أستكمل بها شكل لحظتى الجميلة.. تمايلت.. قامت ورقصت في مكانها.. ثم جلست بعد أن جاء عامل الكافيه بطلبها، ورص لها قطع الفحم المتَّقدة.. نظرت إليها، كانت تضج بالحياة.. كانت علا قد عبَّأتْ لحظتها بملء الحياة حتى أنني خلت أن اللحظة القادمة لن تأتي.. وما الذي يهمني من لحظة لم تأتِ بعد؟.. تكفينى اللحظة.. هذا هو مفهومى الذي ولدته لي بنات أفكارى.. مفهوم الحياة عندي؛ الذي أدور في قدس أقداسه أحيانًا.. وأحيانًا أخرى ألعنه، وذلك حين أجدنى أُطعم الطيور المحلقة بقوت السنين القادمة.. فاللحظة التي نعيشها الآن قد تسرقنا أيامنا القادمة، لكني لم أفهم هذا كل الوقت.

الغريب هو أنه، حتى جدران الكافيهات قد تتزين بساعات تراقبنا، أو تجلس أمامنا كحكام الوقت من أجل أن تنهى أجمل اللحظات.. فجأة انتفضت علا في مكانها حين سمعت صوت أنين الساعة تنذر بالرحيل.. تخلصتْ من لايٍّ الشيشة التي كانت تقبض عليه، مثل فتاة صغيرة بهرتها كرة من شعر غزل البنات ملفوفة على عود لين من البلاستيك الملون.. ثم طلبت منى أن نخرج لنلتقط حفنة بكر من هواء البحر، لم تتلوث بالأدخنة التي تطير حولنا، كأرواح شريرة في أرجاء القاعة بالكافيه.

كان الطريق يمتد فوق كورنيش البحر ناعمًا، تناثرت فوقه أجساد تتلاصق وتتباعد في خطوات تترنح في خفة أجهدتها ساعات من المشى دون توقف.. تناولت اثنين من قناديل الذرة المشوى من أحد الباعة الذين يكتمل بهم التصميم المبدع لكورنيش الإسكندرية. كانت الذرة المشوى واحدة من ضمن طقوس رحلتى إلى هنا.. مشيت إلى جانبها.. التقطت أنامل أصابعها، دورت أصابعى في حلقات فوق أناملها.. كانت الساعة

تتجاوز الحادية عشر.. طلبتْ منى أن ننهى ليلتنا.. لم أتفاوض معها بشأن بضعة دقائق جديدة.. اكتفيت بالساعات الجميلة التي كونت لحم لحظتنا التي أوشكت على النهاية.

أنطلق التاكسى وبداخله علا.. وأنا أراقبها من خلال زجاجه الخلفى.. تحركت في خطوات قليلة قبل أن أستقل التاكسى الذي وقف أمامي فجأة كأنما كان على اتفاق معى.. ثم تحرك بي خلف علا، فدارت الهواجس في رأسي.. هل أمرته ليفعل ذلك؟، فكرت في أن أستمر في لعبة المطاردة التي بدأت ولا أذكر إذا كانت قد بدأت بأذني أو دونه. فكرت أن أصعد السلم خلفها، بعد أن نصل إلى بيتها، وأفاجئها بمقابلة أختها وطلب يدها.. للحظات خدعتنى اللعبة التي لم أبدأها بالفعل، يبدو أن قليل من النسيان ممزوج ببعض الهواجس قد عاودنى لثلاث دقائق ، لم أتذكر خلالها مها؛ المرأة التي تنام الآن في فراش الزوجية، سواء كانت تنتظرنى أو لا تفعل. انحرفنا يسارًا.. دقائق لم تتجاوز العشرة، ثم توقف التاكسى أمام باب الفندق وأنهى الصراع الذي دار في مقعدى داخل السيارة ولم يتجاوزه.

فى حجرتى بالفندق لملمت ملابسى، كومتها داخل حقيبة السفر، وجذبت حقيبة أوراقى، وجمعت داخلها أوراق التدريب وقصاصات أخرى من الورق سجلت عليها بعض مذكراتى عن رحلتى في الليلتين الماضيتين.. كنت سوف أستقل قطار الثالثة صباحًا.. وفرصتى في السرير تزيد على الساعة قبل أن أغادره إلى محطة القطار في رحلة العودة.. فقررت أن لا أفوِّت الفرصة.. نمت مرتديًا نصف ملابس الخروج، في غفوة تشبه غفوات زوجتى التي تبدأ بسرعة تخطفك قبل أن تلمس الوسادة.

يا سيدتى.. كونى جميلة.. فهكذا أحببتك وجهًا للقمرِ.

تحركى حولى.. وأفردى كفك كيفما شئت تحت المطرِ..

واحفظى سحر وجهك من الشحوب.. وكحل عينيك لا يسقط مطرا..

فأنا مجنون بجمالك.. وله قد كتبت الشعرَ.

وأنا الذي حين أحببتك.. منحت وجهك السحرَ.

فإذا ضيعتيه، فعذرًا .. قد أجعلك حجرا.

الليلة الخامسة

تحفة بجماليون.. غفلة رجل

كانت الحجرة أسفل السلم الذي ينتهى في البهو الكبير بالطابق الأرضي، قد اتسعت كميدان عظيم.. أعمدة الحجرة استطالت، فغاصت في الأفق البعيد.. تدلى فوق الأعمدة الطويلة، سقف من عاج، خرجت منه شموع بمقاسات وأحجام مختلفة، في انحناءات كأنها حيَّات مضاءة.. الميدان الفسيح امتلأ بتماثيل بيضاء وسوداء، لنساء وحيوانات.

في المنتصف منصة مستديرة ترتفع فوق الأرض بمقدار قبضة يد.. فوق المنصة المستديرة كوْمة من العاج على شكل جسم بشرى بالحجم الطبيعى لم تتضح ملامحه بعد.. طاقة كبيرة في سقف الحجرة فُتحتْ، فطلت السماء من فوقها.. أربعة رجال قُتلت عضلاتهم بشكل مخيف، ظهروا عند حافة الطاقة التي في السقف، الرجال الأربعة جُعلوا يمسكون بطرف شبكة من الحبال.. وفي طرفها من الداخل تعلق مقعد كأنه أقتطع من عرش مملكة قديمة.. وفي المقعد غاص جسدي الذي انكشف معظم أجزائه.. الرجال الأربعة يُنزلون المقعد بحرص، حتى بدأ يقترب من الأرض.. بضعة دقائق ووجدتني أمام قطعة العاج الكبيرة.. انزلقت من فوق المقعد الذي أرتفع وأختفى في فراغ الطاقة المفتوحة فوق رأسي، واختفى معه الجيش البشرى الذي أنزله.. درت حول كومة العاج.. عملتُ فيها أدوات النحت التي كانت في يدي وقت انزلقت من المقعد الملكىّ.. العاج الأبيض تحول إلى جسد امرأة فاتنة.. ملفوفة ومفرودة بلا انحناءات.. تكـوَّر نهديها حتى ملأ قبضتى، ولم أنسَ أن أجعل فوق النهدين قطعتين من حبات تشبه حبات العنب الممتلئة. وتمنيت لو ملكت السحر، لجعلت أنهارها تتدفق عسلًا..

وحول وسط المرأة المنحوتة، درت في عدة لفات كالمهووس، كنت مهتمًا بكل مليمتر من الحيز الذي يشكل خصرها، جُعلت أضبطه، ثم أتفحص أدق تفاصيله، وأعود من جديد لضبطه مرة ومرتين وعشر مرات، حتى جَعلتُ واجهته الأمامية تبدو كأنها السفينة تايتنك، تمنحك إحساسًا جميلًا بأنها مؤهلة لاحتواء جسدك المحموم، فتخفيه في انحناءتها التي انسحبت على الجانبين بدقة كبيرة.. ثم نزلتُ بأدواتى التي صنعتها بمقاسات خاصة، فوق جسم المرأة التي مثلتها، ونحتُّ سيقانها، فبدت كعمود من لحم الشاورما الذي يقف في عزة وشموخ أثناء رقصته، ومن حوله تتقد ألسنة النار. سيقان تستدير في حلقات تتسع من أعلى ثم تضيق هذه الحلقات كلما اقتربت من انثناءة الساق في منتصفها.. وفي ملامح وجه المرأة المنحوتة، قد صوَّر الجمال أسراره، التي منها تفرق السحر والجاذبية في وجوه كل النساء.

مرت ليلة ثم أربع عشرة ليلة أخرى، وأنا أنظر إلى المرأة في التمثال المنحوت.. لا أصدق أنني أنا الذي فعلتها.. أحببتها.. جمعت كل ثروتى التي كانت تختفى في ممرات الحجرة، من قطع الماس التي كانت تختفى خلف صناديق الكراكيب القديمة، ووضعتها تحت قدميها.. رغبتي في المرأة المنحوتة من العاج تشتعل في الكراكيب النحاسية باهتة الألوان، فتحولها إلى قطع من ذهب وأحجار كريمة.. ألملم القطع الثمينة وأضعها عند أقدام المرأة الجميلة.. أفرد يدىَّ.. أحتضن جسدها العاري.. أحترق في قبلة تموت على شفتيها، التي مثلتهما كـرْزتين جميلتين، وفشلت في حقنهما إحساسا.. حاولت مرة أخرى، حاصرت رغبتى التي غرقت في دماء شراييني.. جمعتها كلها، وقذفتها في جسد المرأة البارد.. سقطت فوق الأرض.. المرأة لم تتحرك.. صرختُ بأعلى صوتي.. لم تتحرك.. دُرتُ

كالمجنون حولها في هوَّس وخيالات، شعرتُ بأن الأدخنة تتصاعد من رأسي، أمسكت بعمود من حديد وضربت في وسط التمثال فسقطت المرأة، وتناثرت أجزاءها فوق أرض الساحة الواسعة التي صارت كميدان للقتال.. وحوش يركبها الرجال الأربعة، حوطتنى من كل ناحية.. في يد كل رجل رمح بنصل من نار.. انطلقت وسكنت في حنجرتى.. صوت مبحوح يحاول أن يشق صدري.. أسمعه يقول:

- المرأة التي خرجت من رأسك قتلتك.. المرأة التي خرجت من رأسك قتلتك.

سقف الحجرة يقترب من الأرض.. تخور من تحته الأعمدة الليِّنة.. الجدران تتحول إلى وحوش تأكل الكراكيب المتناثرة في الحجرة.. الوحوش تقترب منى.. تقترب أكثر.. كل شيء من حولى يتشكل، فيصنع دوامة من لحم النساء، تلف بسرعة كبير وتصفر في أذني.. أصرخ وتضحك منى قطع اللحم الأنثوى، وتبتلعنى هذا الدوامة التي تشكلت من لحم النساء.. ثم تختفى الحجرة وكل شيء حولى، في وسط الفراغ المظلم.
أنقذتني جدران غرفة الفندق التي رأيتها من خلف أهدابى، وكأنها تسقط فوقى.. انتفضت واقفًا إلى جانب السرير.. الأرض من تحتى كانت تتمايل بى.. كدت أفقد توازنى.. استندت إلى مؤخرة السرير، وجلست عند حافته أستجمع وعيىّ.. وقعت عينى على حقيبة السفر.. تذكرتُ القطار.. جمعت نفسى وحقائبي وأغلقت التلفاز الذي كان ينقر في عقلى أثناء النوم، مثل طير جارح، حتى أنني مازلت أشعر بمنقاره كسكين غرست نصلها بمؤخرة رأسي.. طلبت المصعد الذي تأخر أكثر من ثلاث دقائق حسبتها ثلاث ساعات، انفتح باب المصعد.. جمدتنى المفاجأة.. الباب ينغلق وأنا لم أبادر بخطوة واحدة إلى داخل المصعد.. مددت يدي بالحقيبة متحاشيًا غلق

الباب.. دخلت المصعد.. اختلست نظرتين إلى بلاط المصعد.. كان مكوما في واحدة من الزوايا الأربعة، رجل برأسه شعر أشيب، وحول رقبته رابطة عنق معقودة بعنف، تسببت في اختناق الرجل فأدت بحياته.. طبيعتى الهادئة أدارت الموقف.. لم أزفر ولم أعاود النظر إليه.. توقف المصعد في الطابق الأرضي.. انفتح الباب.. أخرجت حقائبى.. حملتنى أقدام مرتجفة إلى موظف الاستقبال، الذي كان ينهى إجراءات الإنزال لأحد القادمين الجدد، مددت يدي إلى الموظف بمفتاح الغرفة، الذي سألنى عن رقمها ، لأنني كنت قد أعدت المفتاح الممغنط بدون الغطاء الذي يكتب عليه رقم الغرفة.. لم أسمع من كلامه حرفًا، فكرر قولة فمه، فأجبته إلى سؤاله وعيني قد تجمدت، فوق أكتاف النزيل الجديد، ومعه عامل الفندق الذي يحمل الحقائب، وهما يزلفان إلى داخل المصعد، والغريب أنهما لم تصدر عن أي منهما إشارة، أو صرخة استغاثة. هل تحرك المصعد في هذه الثوانى التي خطوت فيها نحو مكتب الاستقبال بالفندق، وتخلص من جريمته؟ كيف خلى المصعد من الجثة التي تكومت بداخله؟ مَن يستطيع في لحظات قدرها ثوانى أن يفعل هذا؟ رغم حيرتى، إلا أن ما حدث جعلنى التقط أنفاسي، وأستجمع انتباهي الذي تفرق في طرقات وغرف وممرات، عددها يفوق ممرات وغرف هذا الفندق.. دفعت فاتورة إنزالى لمدة ثلاث ليال، وحملت حقائبى وتوجهت ناحية الباب في خطوات وئيدة في انتظار صوت يأتى من خلفى، يطالبنى بالتوقف، لكنه لم يفعل ووجدتني أغوص في المقعد الخلفى بداخل التاكسى الذي انطلق إلى محطة القطار.. الصور تختلط برأسي كثيرة وسريعة، صورة الرجال الأربعة في حلم الساعة الماضية، وصورة الرجل الذي تكوم في المصعد، تمثال المرأة الجميلة يتناثر فوق رأسي.. فجأة قفزتْ صورة الدكتور سامح، وأجدنى أنصت إلى صوته، وهو يحدد لي الموعد القادم لزيارته، أنه غدًا.. أفقت من طوفان

الصور التي اجتاحتنى لأجدنى أمام محطة القطار.. دفعت للسائق وجذبت حقائبى، ولم ألتفت إلى الباب، هل أغلقته أم تركته خلفى للراكب الذي كان يقف في انتظار نزولى.. لا.. لم يكن هناك من ينتظر، لقد تركت الباب لسائق التاكسى ليقوم هو بغلقه، هذه مهمته، فقد كنت منشغلًا بحقائبى.

صوت صفارة القطار، أقتلعنى من فوق المقعد المحشور برصيف المحطة.. دخلت القطار.. أغمضت عينى .. رحت في إغفاءة من تلك التي تغلق لك عينيك وتسدل على وعيك رقاقة خفيفة من الحرير، تجعلك تنفصل عن الوقت والمكان. لكن ذهنك يظل متأرجحًا، يقفز منك فوق أرفف الحقائب إذا ما صعدت واحدة أو نزلت أخرى، ويجرى ليتعلق بالقرب من حوار قصير يدور على باب القطار عندما يتوقف على المحطات التي تدفع بمسافريها إلى عرباته. ويبدو أن ذهنى قد تحيَّن الفرصة، والتقط طرف خيط جذبه فوجد عند نهايته ذكرى أصوات، تعلق بها بعض من حوار كان قد دار بيني وبين علا أثناء رحلة قدومى إلى الإسكندرية منذ ثلاثة أيام، فسرحت مع أحداث اللقاء الرائع وكأنه مشهد يحكي صدفة درامية. ابتسمت حين تذكرت كيف خطفتْ لنفسها المقعد الذي بجانبي من صاحبه؛ الذي عاد إلى مقعده مرة ثانية قبل نهاية الرحلة.

كانت علا قد قررت أن تظل بالإسكندرية إلى نهاية الأسبوع، في ضيافة أختها التي تزوجت في بيت الأسرة، هذا البيت الذي كنت قد زرته مرة منذ أكثر من عشرين عام. حين كانت أحلامى كأمواج الشاطئ عنيفة، تغلبها شجاعتها، فتشاكل الحجارة الكبيرة.. وتتكسر عليها، ثم تجرى فوق ماء البحر، وتأخذ من فورته وتعود مرة ومرتين وتتكسر ثانية، دون أن تفقد مقاومتها.. وقتها قابلت والدة سهام بدعوة على الشايْ، كان الغرض منها مجرد التعارف، وقيامى بمحاولة من أجل إقناعها بمنح سهام الفرصة للسفر للعمل معي في القاهرة.. لم يكن هذا هو السبب الذي دخلت لأجله

المنزل، فقد كانت بداخلى رغبة في التقرب من عائلة سهام ورؤية البيت الذي تعيش فيه، يومها لم أقابل علا التي ربما كانت تستذكر دروسها، أو أنها دخلت سريرها مبكرًا، حتى تستيقظ في وقت مبكر لتلحق بموعد المدرسة.

والغريب أن الفرصة التي اختلقناها لوالدة سهام، وجدت لها مكانًا في الواقع، وبعد ثلاثة أشهر مرت على زيارتى لهم بالمنزل، تكلمت تليفونيًا إلى سهام وأخبرتها بفرصة العمل، وقبلت سهام العمل خارج الإسكندرية.

فى القاهرة، في حى الفجالة كانت ساعات العمل تجمعنى بسهام، ومها نصار، ومحسن الذي تزوج من مها، بعد قصة حب دامت لسنوات، حكى عنها كل زملائنا بالمكتب.. كانت سهام تسافر إلى الإسكندرية مرة كل أسبوع في إجازة لمدة يومين، كنت أنتظر مجيئها، وأذهب معها إلى المحطة أودعها، وأترك سلامى وديعة تسافر بها لتسلمها إلى المدينة التي أحبتها، وما تبقى من أشواقى، يكون من حق والدتها.

مرت شهور، وأنا وسهام نقضي معا ساعات النهار في العمل، وبعض الأيام نخرج في فسح قصيرة، نتكلم فيها عن المستقبل، وأقرأ لها القصص التي أكتبها، وأقدم لها أوراقًا خطَّتها أشعاري التي كتبتها من أجلها، لتصف لها قدرًا من الحب والشعور الجميل فاق ما قرأته في الروايات، ولا تقدر أن تحكيه الشفاه ولكن تستطيع السطور أن تصفه بلباقة.

بدأت سهام في حصاري، حين طلبتْ منى أن أسافر معها إلى الإسكندرية، لأتقدم لخطبتها، فاعتذرت بحجة أنني غير مستعد لهذه الخطوة، وكانت مها في هذا الوقت قد ارتبطت معها في علاقة صداقة قوية، فكانت سهام تحفظ عندها أسرارنا، وتأخذ من كلامها، النصائح وأحيانًا القرارات. الحصار حولى يضيق مرة عن طريق سهام، ومرة بمكالمة تليفونية من أمها، وثالثة من مها، ورابعة من محسن.

تحولت سهام إلى قطعة بشرية جامدة، تدورعلى لسانها كلمات محفوظة كأنها دمية من تلك التي يأتون بها للأطفال في أعياد الميلاد. كلما التقينا، سألتني متى ستقابل والدتى؟ وبالطبع باقى الجملة أنا أعرفه، متى ستقابل والدتى لتفاتحها في أمر خطبتى.. كانت تعلم أنني لا أملك أكثر من بضعة ألاف من الجنيهات لا تكفي لإتمام مراسم الخطوبة التي تحلم بها كما تقول، على وعد بأنها ستنتظر، حتى لو عشر سنوات، أو لنهاية العمر.. الكلمات المحفوظة تدور بيننا في كل لقاء.. المشاعر الجميلة تجمدت.. الفتاة الرقيقة التي تطيَّرها كلمات أشعاري فتتعلق بنجمة تسقطها فوق سطح القمر، أصبحت لا تطير، ولا تتعلق بغير كلمات أمها وكلمات صديقتها مها نصار.

وذات يوم جاءتنى مها وأخبرتنى أن سهام قررت أن تنهى علاقتنا، وأن أبن خالتها الطبيب الذي يعمل بالإسكندرية ويكبرها بأعوام تقدم لخطبتها، ولم تجد ما يبرر رفضها. كنت أعرف أن في القصة واحدة من حيل صديقتنا مها نصار، الجميلة التي تسجن أنوثتها داخل عقلها ولا تفرج عنها إلا لتداعب أوقات محسن، الذي لا أعلم ما هي حسناته التي وجدتها مها فكيَّلت له الحب بكل هذا السخاء. وأصدرت حكمها على سهام التي أوصدت أبواب مشاعرها في وجهي.. لم أهتم للقصة.. وتقريبًا إنقطعت علاقتى مع سهام.. كان كلامنا قليلًا لا يتعدى حفنة أو اثنتين كل يوم، من هذه الكلمات التي تطن كنحاس أجوف، بعضها حاد وبعضها ماتت حماسته، لنحافظ على التواصل المطلوب بين الزملاء في العمل الواحد.. والبعض الآخر من الكلام نزدرده غصبًا لنستكمل به قواعد اللياقة أمام أعين من يعرفون قصتنا.

الأيام تمر، والقطيعة بيني وبينها وضعت لعلاقتنا أطارًا جديدًا بألوان قاتمة، حتى أن علاقتى مع مها ومحسن بدأت تغير من ملامحها هي الأخرى وكأن جميعهم أرادوا معاقبتى. ولم يقدر أحدهم ظروفى، وإن كنت وحدى أعرف أن الظروف لم تكن هي السم الذي سحب الحياة من جسد هذا الحب الذي ولد ليموت مبكرًا، لكن الحقيقة تضع بعض اعترافاتها، لترفع عنى الذنب الذي اقترفته، لمجرد أنني أحببت وأنا بعد لا أملك الأموال التي تمنحنى حق العبور بهذا الحب إلى عرش نعمته في فراش الزوجية.

كانت القصة قد وضعت نهايتها عندما قدمت سهام استقالتها وعادت إلى الإسكندرية، بعد أن حددوا ميعادًا لزفافها، دون مقدمات، وخطوات تسبق وخطوات تتأخر، فالأموال تصنع لك كل شيء، وتستطيع أيضًا أن تقدم عقرب الساعة من أجل جنابك.. كانت سهام كريمة للدرجة التي جمعتنى إلى صحبتها مع مها ومحسن وبعض من زملائنا في حفل توديع، قبل أن تترك القاهرة، استطعت في الوقت المتبقى من حفل التوديع أن أنفرد بها، وأسرق منها حفنة من الشفقة والرثاء لظروفى التي حرمتنى منها.. لا أنكر أنني كنت ماهرًا في عرض ظروفى وأعذارى التي لا أملك حلا لها حتى أن دموعى امتنعت عند بوابات عينىَّ خوفًا من أن يلمحها أحد ممن حولنا.

رجعت ليلتها بمفردى.. كنت متأثرًا بالموقف الذي مثلته بمهارة حتى أنني صدقته، وعشت الحالة التي رسمت لها إطارها بكلماتى، لأنني لم أقل سوى الحقيقة، ولكن ما كذبت فيه هو شعورى بهذه الحقيقة.. ووجدتني ألعن سهام؛ المرأة التي تحولت من قطعة شعرية رقيقة، تداعب أحلامى، إلى واقع جامد، ماتت مشاعره وتجمدت أحاسيسه، فبدت كتمثال جاف، كلما اقتربتُ منه بأشواقى احترقتُ بردًا، فتركته ينكسر، أو فعلتها بنفسى. كان لابد للتمثال البارد أن ينكسر. فأنكسر.

وصل القطار إلى رصيف القاهرة في الخامسة والنصف صباحًا.. فكرت أن أذهب إلى المكتب، فلستُ في حاجة إلى قسط من الراحة في سرير امرأة لا تفرط في حنانها ولا تجزل من رغبتها ما تغرقنى به. ولست في حاجة إلى طعام، سأصنعه لنفسى، في هذه الساعة المبكرة من الصباح.. خطواتى وأنا أعبر الطريق لا يروقها حديثى الصامت إلى نفسى، فرغم تفسيرى لطبيعة العلاقة بيني وبين المرأة التي تنام في البيت، إلا أنني قد بدلت قرارى.

بعد ربع الساعة وصلت إلى المنزل.. كانت مها نائمة، في الغرفة بالطابق العلوي، على عكس ما تفعل في كل الأيام، ولكن الأمر مختلف فأنا غير موجود بالمنزل وهذا أكبر مشجع على تركها الحجرة الصغيرة بالطابق الأرضي.. عندما دخلت إلى غرفة النوم، كنت قد تركت مصباحها مغلقًا، واكتفيت بخيوط الضوء التي دخلت خلفى والمنبعثة من المصباح المعلق في الطرقة بين السلم الداخلى والحجرة.

فى السابعة بدأت مها تتحرك في السرير، دون أن تقرر الاستيقاظ، نظرت إليها.. كان جمال وجهها يهدينى سحره، رغم شحوب النوم الذي زحف عليه منذ ليلة الأمس.. انزاحت عنها ملابس النوم القصيرة، حتى انكشفت سيقانها ومن فوقها أعمدة الشاورمة البيضاء، فدبت في جسدي شرارة رغبة محمومة، كانت مها قد أبطلت مفعولها منذ وقت طويل، بسبب دماءها التي تجمدت وحجزت خلفها مشاعر زوجة كانت تدغدغك كلماتها إذا تكلمت كامرأة خبيرة، ولكنها بسبب أو بدونه كانت قد نسيت أنها واحدة من النساء التي ولدها آدم.. وتشكلت جيناتها من التفاحة التي قضمها وخرج بسببها من الجنة، فظل الرجال من أبنائه يبحثون عن نصيبهم من التفاحة، عند كل امرأة يشتبه في أن في عروقها عصير اللذة الذي كان في

تفاحة أبيهم الأول آدم.. ومها واحدة من هؤلاء النساء اللاتى وهبن من عصير تفاحة آدم، نصيبًا وافرًا.

هزأتُ برغبتى واتهمتها بالزيف. منذ متى وأنا كالجسد الميت، ليس له رغبات، ولا تحترق أي من خلاياه. خلعت عنى ملابس السفر، حتى أبدِّلها بأخرى، لا أعرف ما الذي جعلنى أتخيلنى مرتاحًا إلى صورتى وأنا في السرير، بعد أن هدأت كل ثائرة في جسدي.. لم تنتهى شاشتى الذهنية من عرضها، إلا ووجدتني أنفرد في السرير، دون مقاومة من أي من خلايا جسمي لفعل الجاذبية، شعور جميل بالراحة وأنت تستسلم بإرادتك للجاذبية، التي تشدنا شدًا عنيفًا إلى الأرض، ونظل متعبين لأننا نقاوم كي نبقى واقفين كالنخل، لندلل على أننا مازلنا على قيد الحياة.

مرت نصف ساعة وأنا ممدد، ومحلق مع أفكارى التي مازالت تحمل رائحة البحر، وصورة علا تصرح لي بصرف مجموعات متتالية من ابتسامات تعلقت فوق وجهي، لو رأتها زوجتى لانزعجت من غرابتها. وبينما كنت غارقًا في أفكارى، كانت مها تدور في السرير، وتقابلنى بوجهها، وتلف زراعها حول رقبتى، وتفرد ساقها وتلامس قدمى بقدمها.. كانت عينيها تعلن عن استيقاظها، لولا هذا ما صدقت ما كانت تفعله معى. ابتسمت وداعبت أرنبة أنفى، كمن تداعب طفلها، وقالت:

- جيتى إمتى يا بيضة؟
- دكتورة! أنت لسه نايمة؟
- ليه يا حبيبي؟ حمدلله على السلامة.
- الله يسلمك
- أخبار الرحلة إيـه؟
- الرحلة كانت حلوة قوى، لكن أنت اللي إيـه موضوعك؟

- موضوع إيـه؟ عشان بتدلع عليك؟ أصلك وحشتنى
- من أمتي؟
- من الليلة دى.

سحبتْ ملاءة السرير فوقنا، وجُعلنا أنا وهى، نبحث عن بقية مازالت موجودة من عصير تفاحة آدم، تختفى في بئر امرأة لا تزال على قيد الحياة، الحياة التي وهبتها الأنوثة والرغبة والحب.

فى العاشرة من صباح اليوم.. جلست إلى طاولة الطعام كملك نصَّبوه على العرش منذ دقائق.. ذهبت مها تجهز لنا وجبة الفطور.. كانت الليلة الماضية مازالت تلقى بأحمالها فوق رأسي، ولكني لم أدع لها فرصة لتكدَّر صفو أوقات جميلة لا تتكرر كثيرًا في منزلنا.. جاءت مها تحمل أطباق الطعام، ثم ذهبتْ وعادت بأخرى، وجلستْ قُبالتي، وكَسرتْ الخبز وأعطتنى.. طرتُ طربًا، لأنها اقتسمت الخبز بيني وبينها، فهذه العادة في كسر الخبز كانت موجودة دائمًا على طاولة الطعام في أيام زواجنا الأولى، كانت عادتها في التعبير عن أننا نتشارك الحياة ونتقاسم الحب، ثم اختفت واختفى معها الكثير مما يلذذ النفس ويطيِّب الروح. التقطتْ بين أصابعها قطعة من الجبن الرومى، جُعلتْ تلمسها بطرف أصابعها من جهتين، وتسقط فوقها نظرة جامدة، فبدت وكأنها تقرأ عليها تعويذتها الخاصة، قرأتُ من لغة جسدها، أن لديها شيئًا تريد قوله، ولكني انتظرت حتى بادأتنى بقولها:

- أنا حاسة أنك راجع من إسكندرية متغير.
- أنت مش رايحة المكتب النهارده؟
- لا.. ها أقعد معاك.. بقى لنا كتير عايشين في البيت زي الغرباء

- إشمعنى النهارده اللي فكرتِ تتكلمى في الموضوع ده.
- فؤاد أنت بتحبنى؟
- أنت عارفة
- رد دبلوماسى.. خليك صريح وقول الحقيقة
- (صمتت بُرهة ثم أردفت تقول):
- احنا نعرف بعض من كام سنة؟
- مش عايز أكبَّرك.. مها.. تيجى نكشف ورقنا لبعض؟
- على أساس أني زيَّك واخده الحياة لعبة وشطارتى أني أكسبها حتى لو على حساب حد تانى؟
- مها.. أنت ليه أتغيرتِ؟ معقول مها الخبيرة في حياة الناس مش عارفة تدير حياتها؟!
- المشكلة أنك عايزنى تحفة جميلة كل دورها في الحياة أنها تديك مشاعر وعواطف، وبس.
- وإيـه المشكلة؟
- المشكلة أنك بتحاول تكسرنى
- أنا؟! إزاي وأنا بتمنالك الرضى ترضى؟!
- أنا بحبك.. وعايزة نكمل مع بعض، وعشان كدا أنا ممكن أعمل أي حاجة
- يا ترى أيه لعبتك يا مها.. وأيــه اللي ممكن تعمليه؟
- تانى لعب.. أنا مش بلعب زيك.
- خليكِ فاكره أن أول ما تجوزتك، قلتلك أن طول ما أنت بتحبيني، هفضل أنا كان أحبك.

- أنت ليه بتحاول تثبت لي أن مشاعرك بردت، بسببى؟
- لأن دى الحقيقة.
- واللى حصل بنا من ساعة؟!
- دى حاجة بتحصل حتى بين الحيوانات
- ميرسى يا فؤاد.. يا شاعر.. يا حساس
- ما قصدتش.. أنا أسف.
- فؤاد أنت فيك حاجة جديدة. حاجة حلوة كانت ضايعة منك ورجعتلك.
- فى دى أنت عندك حق.. ده نفس إحساسى.. حاسس أن فيه قوة جوايا، بتدفعنى للحياه من جديد، أنا كنت بدأت أفقد إحساسى بكل شيء.
- أنا حاسة بيك، وواجبى أساعدك وأحافظ على حياتنا
- أنا فعلًا كنت حاسس المرة دى، وأنا معاكي أنك وحشانى، وعندي رغبة كأني بشوفك لأول مرة.
- أنا نجحت.. كان لازم أعمل كدا
- (قالتها وهي ترفع هامتها وتنظر إلى الفراغ، فبدت وكأنها تتكلم إلى شخص غير موجود).
- وإيــه اللي أنتِ عملتيه بالظبط؟ مش فاهم.
- اللى عملته أني كان لازم أصبر عليك، ولما صبرت عليك أتغيرت.. رغم أنك كنت بتحاول تكسرنى.. وتفهمنى أني فشلت أكون ست.. أنت ما تعرفش يعنى إيـه إحساس واحده ، صدقت أنها فشلت في كونها تبقى ست؟ ولو كنت تعرف وعملت اللي عملته؟ يبقى أنت لاعب ماهر.. لأنك كنت قربت تكسرنى.

- مها أنت دايمًا بتفلسفى الحياة.. بس النهارده حصة الفلسفة كانت زيادة شوية.. على العموم.. فيه حاجة حلوة اتولدت بنا من جديد.. لازم نحافظ عليها.
- فؤاد بجد أنت حبيبي.

جمعتها إلى حَضنى، وكأننى أشبع بها بعد سنوات عجاف، كانت كقطة تضمها، فتسلبك إحساسًا جميلًا، وكلما فَعلتْ أطلقت بداخلك طاقة عجيبة تشعلك، هذه هي المرأة التي أعرف أنها تسكن بداخل مها، والتي كانت تحجبها عنى بقصد.. ربما كانت تريد معاقبتى.. هي تعرف متى تعاقبنى.. ومتى تثوبنى.. جديرة حقًا بلقب المرأة الخبيرة، التي شبعت جيناتها من سر التركيبة في تفاحة آدم. لكنها لم تكن على دراية كافية، بسر الاستمتاع بالحياة، أن الأصل في الحياة أنها تكونت من ذرتين التزام، أو صواب، وذرة واحدة أخطاء، امتزجوا معًا فكانت الحياة، وهكذا نستمتع بها عندما نعيشها ونقبلها على طبيعتها ونرضى بتكوينها ثنائى التركيب، الخطأ والالتزام أو الصواب. فلو أن الحياة، برمتها كانت التزامات، فسوف نضيق بها، ولو أنها حفنة من الأخطاء، كرهناها، لأنها تحولنا إلى كائنات أقل في ترتيبها الأخلاقى، حتى من الحيوانات، لأننا لو بحثنا سنجد أن الحيوانات تلتزم قواعد معينة، وبعض هذه القواعد أخلاقية.

مها تقول عني، أنني بلا مبادئ، وأعيش اللحظة..هذه حقيقة أنني أعيش اللحظة، وليس في ذلك عيب، والمبدأ أو القيمة الكبرى عندي هي جعل الحياة تتحقق، أما هي فمبدأها جعل الحياة تتأزم.. وعندما يحدث هذا، لابد أن نتوقف عندها ونتألم منها إلى أن نجد لها حلولا، وتنفك الأزمة.. علينا أن نعمل بدافع من رسالة، فقد وُجدنا في الحياة من أجل رسالة. أجدنى

أضحك من أفكار ومبادئ هذه المرأة.. التي تقر بأن الحياة قد جاءت بنا من أجل جعلنا كالطحين، تهرسنا بدافع أن هذه رسالتنا.

كانت عقارب الساعة تخطو فوق الواحدة بعد ظهر اليوم.. صعدت إلى غرفتى بالطابق العلوي لأخلع عن أكتافى ما تبقى من أتعاب السفر، وأريح جفونى، التي أثقلها نوم لم يهنئ بليلة كاملة في الفراش ، تمددت في سريرى، ثم درت فنمت على جانبي، وأمسكت بالوسادة، ووضعتها في الفراغ أسفل صدغى، وسندت رأسي وسرحت مع علا؛ الجميلة؛ المنفلتة؛ التي صالحتنى على الحياة، وأظن أن شعورى الذي تغير تجاه مها، كان بسببها.. أحببت علا، فأحبتنى الحياة، ومنحتنى الحب، فذاقته مها لما قدمته بسخاء .. وكأن الحياة عدوى، إذا أصابتنا، أصبنا بها كل من حولنا.

كانت مها صادقة وعالمة ببواطن الأمور، فقد كنت أضع الفروض وأجربها، وأستنتج القواعد، وأدير اللعبة كي أجعل مها تتحطم، لأنها منعت عنى طاقة الأنثى التي بداخلها والتي كانت تفجر في عروقى الرغبات.. لقد تحوَّلت مها إلى تحفة بجماليون الباردة، وسحبت منى طاقة الحياة، جعلت الأشياء تفقد جاذبيتها بالنسبة لى. ولا أنكر أن مها حاولت أكثر من مرة، فقد جربت معي خبرتها الطويلة في ممارسة أسرار التنمية البشرية.. من أجل أن تعيد إليّ طاقة الحياة التي تسربت من خلايا جسدي، لكنها فشلتْ.. وأخيرًا نجحت معي الجراحة التي أجرتها لي علا.. خلصتنى من علَّة مزمنة، تجعلك فاقدًا للوعى رغم أنك تتحرك، فاقدًا للنطق مع أنك تثرثر، لكنك تتحرك إلى غير هدف، وتتكلم ولا تعطى معنى.

كانت مها في حياتى؛ المرأة حاملة شعلة الحياة الداخلية؛ الخبيرة؛ ابنة آدم؛ التي امتزجت دمائها بعصير اللذة من التفاحة التي أخرجتنا من الجنة، كانت مها بالنسبة لى، المرأة التي خلقها الرب لآدم، أو هكذا نجحت هي في تعبئة ظنونى بهذه الصورة عن أنوثتها التي لا تتوقف عن خلق رجولتك خلقا جديدًا كل يوم. هذا هو اعتقادى الذي بنى له صرحًا في خيالى، ونَسجتُ تفاصيله من حكاياتها لي عن زوجها السابق، وعلاقتهما الأسطورية المنقولة عن قصة رخيصة تعرضها أفلام البورنو. تزوجتها بعد طلاقها من محسن، وهي تعرف عنى كل شيء. كانت كل المفاتيح اللازمة لإدارتى، معلقة عند أطراف أصابعها، وهي كانت لي لغزًا، وفك أسراره قد يحتاج إلى الدخول أكثر وأكثر لمياه عميقة، لم أتصور أبدًا، أنها قد تغرقنى. ولكن هذا ما حدث، أغرقتنى. كان زواجي من مها، رحلة بحرية، داخل مياه بلا شواطئ، وأمواج عاتية، لا تنفع معها حتى السباحة الماهرة. بعد زواجي منها، وجدتها مثل فاترينات المحلات، يجذبك عرضها لمحتوياتها، ولكنك لا تملك أن تأخذ مما بداخلها شيئًا يشبع رغبة، أو يسدد لك احتياجا. أدور حولها، أحاول أن أجعل زجاجها يقطر عسلا، فلا يفعل، فقررت إما أن يقطر عسلًا أو ينكسر.

مها امرأة ذكية، قرأت ما بين سطورى.. فهمت أني لا أريد لحياتى تمثالا جميلا، ورغم ذلك ظلت جامدة، ومصممِة على أن أظل النحَّات العاشق لروعتها الباردة، دون أن أصوَّب إليها لعناتى. كانت لعبتها مصممَة من أجل إعادتى لمعبدها، ولكن مثلى لا يرفع بخورًا في حضرة الأصنام.

اتهمتنى مرة أنني فقدت الرغبة، قلت لها، ربما كان ذلك ما يسمونه أزمة منتصف العمر، فصدمتنى بأن حالتي هي الأزمة المزمنة، اللعنة التي تصيب الرجال، وتستقر في مركز الرغبات من المخ، وأى شيء لا ينفع معها. قالت هذا رغم أنني لا أعانى معها مشكلة في ترجمة مشاعر السرير إلى لغة حيَّة وعمل إبداعى.

هى تريدنى كما كنت معها دائمًا، مبهورًا.. مسحورًا إلى حد الغيبوبة، فهذا يحفظ لها عرش القيمة الذي تقرره المعايير الملكية. استمرت حياتنا على هذه الصورة. لعبة مصممة على درجة عالية من المهارة، وفي أخر سطور البرمجة المكتوبة للعبة الحياة بيننا، وضع بين علامتى تنصيص، أمر البرمجة "جيم أوفر".

كلامها معي عن الأزمة المزمنة، هذه اللعنة التي أصابتني، حوار لم يزد عمره على ثلاثين يومًا، أذكر أنه انتهى بجملة قالتها، لم أصل إلى تفسير لها، قالت بتحدى يحمل قدرًا من الطيبة والحنان، أنها لن يهدأ لها بال حتى تجد دواءً لدائي، وأنها ستصنع عملًا عظيمًا، تعلمه للنساء من بعدها، ضحكت منها، ولم أكن مستريحًا لما يدور برأسها الجميل، فخففت من وطأت كلامها، عندما طلبت منى أن أقوم بزيارة علاجية، لصديقي الدكتور سامح.

لقَتْ رأسي في مداراتها داخل وعى مشوش، أخذنى إلى نوم استمر أكثر من ساعتين، استيقظت بعدهما، هادئًا.. استقرت عقاربى التي تدور برأسي دون توقف.. كان موعد لقائي بالدكتور سامح، قد حان وقته.. لم أكن فرحًا بمثل هذا اللقاء من قبل مثلما فرحت اليوم، والسبب أعرفه حق المعرفة، سأدخل المكان الذي تضم جدرانه رائحة عطرها، وآثار أقدامها. أعرف

أنها مازالت في إجازتها بالإسكندرية، ولكني رغم ذلك كنت سعيدًا بأننى سأقوم بزيارة إلى العيادة، ولأول مرة أشعر أنني في حاجة إلى جلسة علاج، أحقق فيها للدكتور سامح رغبته الملحة في تشريح أنسانى الداخلىٌ، وتطبيق نظرياته الخاصة التي جمعت بين الطب النفسى وفلسفته الشخصية على حالتي.. لقد كانت حادثة المصعد، تصفر في رأسي، وأكثر ما يخيفنى أن تكون الحادثة، مجرد وهم صورته لي خيالاتى، أكثر حتى من أن تكون حدثا حقيقيًا، وجريمة تمت بفعل قاتل مأجور أحترف عمله.

بدأت جلستى مع سامح، وقد اكتملت لها عناصر رسميتها، زائر بدأ يصدق في أنه مريض، طبيب متحمس لنظرياته، حجرة كشف مجهَّزة بكل ما يجعلك تنفصل عن وعيك، فتغرق في اللاوعى، تحفر، وتحفر، وتأتي بقاعك الذي لا تعرف ماذا أودعته منذ سنوات عمرك الأولى.

- حمد لله على السلامة.. أخبار السفرية إيـه؟
- السفرية حصل فيها حاجات كتير، والبيت هنا حصل فيه أكتر، مش عارف أبدأ بأيـه؟
- ما تفكَّرش في حاجة دلوقت، كل حاجة هيبعتها عقلك في الوقت المظبوط، وتلاقيها على لسانك من غير أي مجهود.
- كنت فاكر الميعاد بتاعنا؟
- أفتكرته قبل ما أرجع بساعات.
- وإيـه اللي فكرك بيه؟
- فيه حاجة حصلت مش لاقى ليها تفسير.
- أحكى اللي ييجى على بالك، وما تشغلش بالك بتفسير حاجة

- جريمة قتل في أسانسير الفندق
- كمل.. أنا سامعك
- وأنا نازل شفت في الأسانسير راجل مخنوق، لكن بعد ما خرجت من الأسانسير بتلات دقايق، دخل العامل ومعاه النزيل اللي وصل الفندق وأنا ماشى.
- وبعدين.. حصل إيـه؟
- ولا حاجة.
- إزاي؟
- كل حاجة بعد كدا كانت هادية.. كأن ما فيش حاجة حصلت.
- يعنى ما حدش اكتشف الجريمة؟
- لأ.. كل حاجة كانت بتقول إن ما فيش أي شيء غريب حصل
- أنت فضلت في الفندق أد إيـه بعد خروجك من الأسانسير؟
- يعنى.. حوالي عشر دقايق، أخدت الفاتورة ودفعت الحساب، وسحبت شنطتى ومشيت.
- فى الوقت ده، عامل الفندق ما كنش رجع؟
- لا كان لسه ما رجعش
- وإيـه تانى غير حادثة الأسانسير، حصل في الأيام اللي قبل كدا في إسكندرية
- العادى.. عملت التدريب اللي كنت رايح عشانه، و....

- توقفت عن الكلام، عندما رن جرس التليفون، تركنى سامح في جلسة اعترافاتى، والتقط تليفونه وهو يعتذر أنه نسى تليفونه مفتوحًا.
- ألو.. ازيك يا علا!
- انتزعنى اسمها من خيالاتى، وتلصصتُ أحاول أن أسمع صوتها عبر سماعة تليفون سامح، ولكن لم يصلنى إلا صوته...
- مبسوطة في السفرية؟ الحمدلله
- .....
- أنا الحمدلله بخير.. العيادة بتضرب تقلب من غيرك
- .....
- فى انتظارك.. مع السلامة.

ذكَّرتنى رنة التليفون بقصتى مع علا، وإن كنت لم أنسها، ولكن ما حاولت نسيانه وأنا في حضرة سامح، هو ما حدث بيني وبينها. لم يكن من حقى وحدى أن أكاشف به أحدًا وخاصة سامح، لأني تعرفت إلى علا هنا في العيادة، وربما تسبب ما أحكيه له في شيء من حرج واحد من ثلاثتنا. مع أنني أعتقد في أن لدىَّ بعضًا من علم سامح، وأعرف أن ما حدث مع علا قد يغير في مجرى العلاج. ولكني كنت أعتقد أن السكوت عن هذا الأمر الذي بيني وبينها هو الحكمة عينها. فقد تعلمتُ أن طرح التفاصيل كعطايا مجانية يمنح حتى الأغبياء فرصًا هائلة للإيقاع بنا. أنا أعرف أن سامح ليس من الأغبياء. فرغم الصداقة التي تجمع بيننا، واليمين الذي حلفه للواجب الذي يقره عمله كطبيب، فإن كل هذا لا يعصمه من المشاركة في الإيقاع بي ذات يوم.

- وأخبار حالة النسيان إيـه؟
- حاجات بسيطة بنساها
- لكن بترجع تفتكرها، وألا بتفضل ناسيها؟
- مش عارف
- فاكر إمتى أخر مرة، أتعرضت فيها لحالة النسيان اللي عندك؟
- لأ.. مش قادر أفتكر
- مش مهم.. ومها.. إمتى أخر مرة نسيتها أو نسيت حاجة تخصها.
- افتكرت.. لما كنت راكب تاكسى إسكندرية.. بعد ما نزلت وسحبت الشنطة، ما قدرتش أفتكر، إذا كنت قفلت الباب، وألا سيبته مفتوح، والسواق هو اللي قفله.
- فيه حد كان معاك في القطار؟
- لا.. لا.. كنت لوحدى.. كنت في كرسى فردى.. بتسأل ليه؟
- انزعجت ليه من سؤالي؟ ده سؤال عادى ما فيهوش حاجة.
- أنا نمت تقريبًا طول الطريق
- الراجل اللي في حادثة الأسانسير، ما بيفكركش بحد تعرفه؟
- هو فعلًا بيشبَّه علىَّ بحد، بس مين هو؟ شكله زي غالبية الناس.. لكن حسيت أني أعرفه.
- حسيت أنك تعرفه، وألا شكيت في أنك عارفه؟
- هى تفرق؟

- لو حسيت أنك تعرفه، فده معناه أنه يشبه حد أنت تعرفه. لكن لو شكيت في أنك تعرفه، يبقى ممكن تكون فعلًا قابلته قبل كدا، وتعرفه، لكن ما كنتش على علاقة قوية به.
- هو فيه شبه شوية من محسن، اللي كان متجوز مها، قبل منى.
- أخر مرة شفت محسن كان أمتى تقريبا؟
- أنا حاسس أني داخل على تحقيق نيابة
- لا أبدًا.. مش لازم تجاوب على السؤال ده
- أنا شفت محسن مرتين بس، بعد ما أتجوزت مها. أخر مرة كانت من سنة تقريبًا.
- أخبار أحلامك إيـه؟
- عارف أن الراجل اللي كان مخنوق في الأسانسير، أنا شفت واحد يشبه له في حلم، حلمته من ليلة أو اتنين.. مش فاكر.
- كفاية عليك كدا النهارده.
- كدا كفاية.. بس عايز أعترفلك أني المرة اللي فاتت نزلت من عندك مرتاح عن المرة دى.
- مش كل جلسات العلاج النفسى بتبقى مريحة، المهم في الأخر.
- المهم الأخر.. مش ناوي نتقابل مرة برة العيادة
- سيبها لظروفها.
- إيـه رأيك ما تيجى نتعشى مع بعض عندي، من زمان ما قعدتش مع مها.
- أخباركم إيـه مع بعض اليومين دول؟

- العلاقة بنا أحسن اليومين دول.. بس مش متهيألى أنه كفاية.. النتيجة ما تغيرتش كتير.
- ما تستعجلش
- مش عايز أعطلك.. وفكر في موضوع العشاء
- ها أرد عليك.
- سلام.

خرجتُ من العيادة، مهمومًا؛ معكر المزاج، تتزاحم برأسي أفكار وصور كثيرة.. لم أجد مساحة في عقلى خلت من الأفكار؛ ولو بقعة صغيرة برأسي حتى أناقش قرارًا بمكالمة إلى علا، فرضت نفسها على تليفونى المحمول. كان الوقت متأخرًا، وكنت في حاجة إلى سماع صوتها الناعم، ليلعب دورًا في ترتيب ما بداخلى وتخليصه من التشويش الذي يأكلنى بشراهة ذئب جائع.

حين رن جرس تليفونها، كانت في سريرها، تسترجع ذكرياتها القريبة، تستحلب ما تبقى من روعة الأيام التي قضيناها معًا.. كانت غير مصدقة لقصتنا التي بدأت بسرعة بموعد لم نرتبه.

فى ذلك الوقت كانت مشاعري قد بدأت تأخذ مواقعها في المتكآت الأولى، بمنصة اهتماماتي.. بعض الصور الكثيرة العالقة برأسي سقطت من مخيلتى.. الأفكار المتزاحمة تكدست في مؤخرة رأسي، وحجاب قاتم سقط فوقها. بقى في رأسي صورة واحدة لوجهها الأرستقراطي، وفكرة مثبتة تؤكد على مشاعر استمتاعى بوجودها في حياتى، وصوتها الذي يرن في أذني وتتردد موسيقاه، مرات ومرات بداخل عقلى.

مشيت على غير هدى.. أراقب المارة، أقرأ اللافتات، وأسقط بين الڤاترينات كأني أضع لها تصميمات العرض القادم.

دخلت المنزل بعد الواحدة من صباح اليوم.. باب حجرة النوم بالطابق الأرضي، تأرجح قليلًا حول مفصلاته، ثم أنفتح عن أخره وخرجت منه مها؛ أميرة في ملابس النوم:

- حبيبي أتأخر ليه؟
- معقول مولاتى في انتظارى؟
- (قلتها بسخرية لم اجتهد في إخفائها)
- أنا مستنية حبيبي
- اللى هو أنا؟
- لا طبعًا.. حبيبي ما بيتأخرش عليَّ كل ده

ثم سحبتنى إلى داخل حجرتها التي كانت معدة ومجهزة بأيدٍ خبيرة، هي تعرف أن تشكل كل سنتيمتر من مساحة الحجرة، ليقوم بتشغيل شعورًا بعينه في اللحظة المحددة لتداعيات ظهوره في الموقف.
ما الذي يحدث لى، لماذا أستجيب بهذا الاندفاع؟، أن مها تمسح من فوق صفحة مشاعري أي آثار تركتها علا، ثم تأتي صور القصة بالإسكندرية، وفي لحظة تحفر نفسها في إحساسى وشعورى. يبدو أن الألعاب تجذبنى لها كقطعة المعدن، وقريبًا سوف يسقط عني لقب اللاعب الخبير، وأصبح مرهونا بشفقة آخرين أقدر منى على وضع قواعد اللعبة.

لعبت تفاصيل حجرة النوم المجهزة بعناية دورها هذه الليلة، وحركت عندي كل ساكن، فأتممت مراسم التنصيب لأميرتى مها على أفضل وجه.. فعادت تجلس على عرش مملكتى، كأروع ملكة متوجة. كانت دائمًا تقول لي أنت تؤدى أروع ما لديك، عندما تتألق من الداخل، وما يجعلك تتألق من الداخل، حبٌ جديد، وامرأة تدخل حياتك لأول مرة.
كانت بجانبي نائمة وعينيها معلقتين بسقف الحجرة. وكنت أنظر لها في انتظار إعلانها عن مرسوم بجعل السعادة ممدودة في منزلنا كل الأيام القادمة.. فاعتدلتْ في نومتها ومدَّت ذراعها وطوقت خصرى، وكأنها تربطني معها في حلقة اتصال، تضمن لها أن ما تقوله سيضرب مركز العواطف والشعور عندي، فهمست تقول:

- عندي إحساس أنك مولود جديد.
- وأنا عندي نفس الإحساس ليكِ، أنت كمان زي مولود جديد
- أنت بتتولد جديد مع حب جديد، وواحدة جديدة. (كانت تتكلم بثقة لا تلوثها شكوك).
- معقولة؟! الكلام ده زمانه فات. أنا ما بقتش زي الأول.
- زمن تانى أيوه.. لكن أنت مش حد تانى.. أنت نفس الشخص. أنت مش بتتغير يا فؤاد.
- عارفة؟ ساعات بحسك صاحبتى أكتر من...
- أكتر من إحساسك أني مراتك.. قولها.. الحقيقة دى ما بتزعلنيش.
- يا صاحبتى العزيزة.. المرة دى تخمينك، غلط.. وحياتى لا فيها حد دخل ولا حد خرج.
- على العموم أنا مبسوطة.. مبسوطة قوى.

- كلامكِ مخوفنى؟
- لـيه؟ ده أنا بقولك مبسوطة!
- مبسوطة قوى دى.. بتقوليها لما بتنجحى في حاجة عملتيها، حاجة وصلتِلها.
- وده يخوفك؟ ده يبسطك يا حبيبي.
- طبعا يبسطنى.. يا رب دايمًا مبسوطة
- بقولك إيـه يا فؤاد؟ ما تضيَّعش الإحساس الجميل اللي أنا حسيته معاك الليلة دى، وإلا.. حفلة تنصيب الملكة، تتعاد من تانى.
- (قالتها بنعومة قطة، ودلال امرأة رضعت من حيَّة لها أصول قديمة، في أساطير الحكمة والإغواء).

ضحكت مها، وضمتنى بحنان، بالغت في إظهاره.. ابتسمتُ لها، وأغمضت عينى، وأطفأتُ عقلى، لكن بعض أفكاره التي لم تختمر، كانت لازالت عالقة على جدرانه.. استسلمنا جميعنا لنوم من هذا النوع الذي اعتاد الاختباء تحت وسادة مها. وإن كنت غير مصدق بأن أفكارى العالقة ستقبل بهذا النوم الذي يسطو على وعيَّك مع سبق الإصرار.

كانت ترقصُ فوق نغماتى..
فكانت ملكة.. وكنت الملك
ولما كَسـرتُ مزمارى..
باعتنى كالخردة.. بالثمن البخس
وطالبتنى بضرائب عن كل الأعوام
سجنتنى.....
جعلتنى ملعونا في كل الأديان

الليلة السادسة

حيل امرأة.. من أجل ماذا؟

انفتح باب الحجرة الممتلئة بالكراكيب، وبعض الأشياء القيمة التي زاغت داخل الحجرة، ولم أجدها سوى مرات قليلة بحثت عنها.. بقايا من أوراق لعبة الدمينو، تناثرت على أرض الحجرة.. قطعتين أو ثلاث فوق رقعة الشطرنج الممسوحة وباقي قطع اللعبة غير موجود؟ خمس أوراق من أوراق اللعب، ممزقة وورقة الجوكر، قطعت من أسفل رأس الرجل الذي بالصورة.. كل الالعاب التي كنت أفوز فيها، موجودة ولكنها بقايا تالفة لا تصلح للعب.

تخطيت الممر المزدحم، الحائط يتخلص من أحجاره الفرعونية.. مدخل مسحور خلف الحائط.. انزلقتُ بداخله.. الظلام الباهت، يجعل الرؤية مستحيلة.. بقعة مضيئة وقعت على حائط مرتفع سقط أمامي وانحشر الحد السفلى منه في باطن الأرض.. استطالت أسواره فبلغت مداها. من خلف الحائط خرج مارد عملاق تتدلى من رأسه خصلات طويلة، تصل إلى الأرض وتتحرك كثعبان ثقيل من خلف العملاق.. ضحك العملاق.. صفق بيديه.. ظهرت سيدة جميلة بوجه وقور، أشار لها العملاق.. انحنت، ثم ُجعلتْ تصفق بكفيها، وتفرد ذراعها عن أخره، فإذا بعشرة من النساء العذارى يخرجن من خلفها، ويرقصن في انحناءة دون أن ترفع واحدة منهن عينيها إلى العملاق. انتهت النساء من رقصتهن.. وخرجن من حيث أتين.. السيدة الوقورة، تستل سيفًا بسلاح قصير، وتجرى في اتجاه العملاق، وتمزق ثيابها.. تتخلص من كل رداءها.. تتعرى.. تطلق يدها في شعر رأسها.. تنفرد خصلاتها المموجة فوق أكتافها العارية الممتلئة لحمًا،

ترقص حول العملاق.. يضحك لها.. تزيد من سرعة حركاتها.. ينزل العملاق على ركبتيه.. ترقص السيدة الوقورة العارية بالقرب من أنفاسه.. تدور معها رأس العملاق.. يسقط على ظهره.. تقفز فوق صدره.. ترقص وترقص وهو يضحك لها، وفجأة تلتقط سيفها ذو السلاح القصير المختبئ بجدائل شعرها، وتسقط فوق قلبه، وتزرع سيفها في صدره.. يتدفق نهر من دم العملاق.. يتألم.. ثم يموت.

المرأة الوقورة تقرأ تعويذتها على العملاق.. في لحظات يتحول إلى دمية كبيرة في وسطها قطعة مستديرة من حديد.. المرأة الوقورة تجرى إلى الداخل وتعود بحجر مغناطيسى على شكل رأس حيـَّة.. تسلط حجرها على العملاق الدمية، فيستجيب ويتحرك في الاتجاه الذي ذهبت إليه.. دارت المرأة في لفات سريعة، وبيدها الحجر المغناطيسيّ، الدمية العملاقة تتحرك بنفس سرعتها.. تصطدم بالحائط، تنكسر الدمية إلى قطع صغيرة.. تتوقف المرأة الوقورة.. تصفق بكفيها.. تخرج العذارى العشر.. تجمعن أجزاء الدمية.. تخلطها بماء وطين، وتبنى بها مقعدًا كبيرًا بقاعدة هرمية عبارة عن مدرجات ترتفع فوق الأرض بضعة أمتار.. العذارى العشر يحملن السيدة الوقورة، إلى قمة الهرم، المرأة ترفع هامتها، يعلو صوتها.. ترتج أرجاء المكان.

فُزعتُ مما رأيته وأنا مختبئ خلف حائط المدخل المسحور، عدت ثلاث خطوات دون أن ألتفت خلفى، ثم درت بوجهي فوجدت ممرًا طويلًا ينتهى ببوابة عالية، أطلقت جسدي الذي كان كقذيفة مدفع متجهة نحو الباب، تحاول الخروج قبل أن يغلق.. عندما وصلت إلى الباب الكبير.. وجدت ألف وجه يشبه وجه المرأة الوقورة.. يطير حولى بلا جسد.. يمنعنى من الخروج.. حاولت.. وحاولت.. الوجوه الألف تحاصرنى.. أختفى في

وسطها، أصرخ.. وأصرخ.. صوتى يخفت.. أبخرة قاتمة تملأ المكان.. كل شيء يتحول إلى فراغ ساكت ومظلم ومخيف.

كانت مها مازالت نائمة، خدرتها أشواق معتقة منذ فترة طويلة، وتجرعتها ليلة أمس، ملأتْ منها كؤوسًا كثيرة، وشربت حتى ثملت. تركتها نائمة وخرجت مسرعًا، دار موتور سيارتى اللانسر، دون أن ينسحب انتباهي إلى صوته، فقد كنت منشغلا، بموعد وصول قطار الإسكندرية، الذي تركبه علا.

دخلتُ إلى الصالة الكبيرة لمحطة القطار، كانت مزدحمة بالمسافرين.. تجاوزتُ هذه الصالة التي تستقبل المسافرين دون أن تهتم لأحوالهم، وعبرت إلى الرصيف المقرر لوصول القطار، حسب ما هو مطبوع على اللوحة الضوئية المعلقة في جانب الصالة. لم أستمع إلى رنة المحمول، التي عزفت لحنها في جيبى عدة مرات ثم سكتت. نظرت إلى ساعتى، كان تأخر القطار قد تجاوز الحدود المحتملة لتأجيل لقائى بها، لكن القطار كان قد تجاوز موعد وصوله، بأكثر من سبع دقائق وهذا كافى لتحترق ذريعة صبرى.. وقفت عند منعطف بالرصيف ساعدنى أن أراقب الطريق الذي سيأتى منه القطار، من أبعد نقطة رؤية ممكنة، لأننى لم أستطع أن أبقى متجمدا فوق الرصيف بكل حواسى، دون أن أفعل شيئًا. القطار يظهر من بعيد كحبل طويل يتلوى، وقاطرته تخترق الفراغ، بوجه جامد تكسوه قسوة لا تعير اهتمامًا لاشتياقات المنتظرين على أرصفة المحطات، ولا يحسب مثلهم للدقائق والساعات التي يأكلها الانتظار الممل المستنفذ لطاقة الآمال المعلقة على وصوله.

الغريب أنني غسلت وعيىٍّ من خمر الأمس التي تناولتها في سرير مها، بمجرد أن سحبتنى الخيوط الذهبية التي كانت تتدلى من الشمس التي زغردت فوق منزلى واخترقت نافذة الحجرة في صباح ذلك اليوم. غريب أنا.. بدأت أصدق في إيمانى باللحظة التي أعيشها، فحين كنت أملك لحظة مها، وجدتني أعيش بكل حواسى ومشاعري معها، وحين جاءت لحظة علا، فأنا أجهز لها نفسى، لأسقط فيها بكُليتى.

وصل القطار إلى رصيف المحطة.. انفجرت أبوابه، المتفرقة في عرباته الكثيرة، الأجساد تتلاحم نزولًا وصعودًا داخل القطار، الحقائب تتزاحم فوق الرصيف.. أبحث عنها كصغير فقد لتوه يد أمه وتاه في زحام كبير.. من خلف تلاحم اللحم الذي يتحرك أمامي كانت علا تلتقط حقيبتها، تحركت بسرعة نحوها، وفجأة تسمرت قدمى في الأرض.. مَن هذا الرجل الذي تضع يدها في يده، هل كان معها في القطار؟ هل دار بينهما حوار يشبه ما دار بيننا؟.. الأسئلة تتزاحم في رأسي في مشهد يشبه مشهد ركاب هذا القطار، الذي بدأ يغادر الرصيف، ويخيل إلىَّ أن ركابه يراقبوننى ويضحكون من غفلتى.. لا.. لم يكن معها في القطار.. أنه يلتقط منها حقيبة السفر.. كان في انتظارها على رصيف المحطة.. هو من أقاربها الذين يسكنون القاهرة، وجاء في استقبالها.. كانت هذه الأسئلة تتواتر على رأسي في سرعة، فاقت سرعة القطار وهو نهمٌ يأكل المسافات.

تجاوزتنى علا والرجل الذي كان معها دون أن تلحظ وجودى.. أسرعت خلفهما.. توقفت.. لم أقرر ماذا أفعل.. حاولت أن أغادر المحطة قبل أن تغادرها.. تظاهرت أنني أدخل المحطة لأول مرة هذا الصباح، تركت جسدي يتحرك وكأنما لا أهتم بمن يأتي أمامي حتى وجدتني أمامها.. ابتسمت وهززت رأسًا، تنبئُ بأنها لا تنوى التوقف لمصافحتى.. لم اهتم

لقرارها.. وقفتُ أمامها كحجر كبير سقط على الطريق السريع.. مدت يدها إلى داخل يدي، كانت أصابعها جامدة، كأعواد الحطب.

- أستاذ فؤاد.. ازيك.. عامل أيــه؟
- حمدلله على السلامة.
- محمد خطيبى.
- أهلا وسهلا.. فرصة سعيدة.
- (قلتها وأنا أصافحه بيد حملت أطرافها حريق نشبت ألسنته في صدري).
- عن إذن حضرتك.

انسحبت علا من أمامي، كمن تهرب من نظرة اتهام.. وقفتُ مكانى.. التفتُ برأسي، بينما كان جسدي مازال محتطبًا في نفس وجهته، راقبت خطواتها.. لم تلتفت خلفها، لم تحاول أن تعرف إن كنت أتابعها أم أنني أتخذ طريقى إلى داخل المحطة. درت بحركة بطيئة نحو الشارع.. كانت قد اختفت.. مشيت في خطوات ثقيلة شعرت معها أنها لا تنقلنى لمكان أبعد من موقعة الهزيمة التي كنت فيها فارس مكسور. بدأت استجمع نفسى.. فأنا لا أبقى كثيرًا مغيبًا بفعل الصدمات، فهي لحظة مثلها مثل اللحظات الجميلة، لحظات التألق التي أعيشها، هذه تمضى، وتلك أيضًا.. أموت على أطرافها الأخيرة، وهناك لحظة جديدة، ستلدنى فوق بدايتها، خلقًا جديدًا.. ببداية جديدة.

فى مكتبي بمؤسسة الحياة للاستشارات والتدريب، كنت مفرودًا على كرسى المكتب، مستريحًا إلى لحظات لا تشاكسنى، وتمر عبر مجالى الزمنى هادئة تتحسس طريقها إلى مخزن الماضى، على أطراف أصابعها.

عزفتْ أنغام المحمول، الذي نسيته في جيبى منذ أن خرجت من المنزل.. كان سامح على التليفون، مرات قليلة التي يتطوع سامح بمكالمتى على التليفون، ربما كان هذا لانشغاله بمرضاه ومشاكلهم التي يأخذها معه إلى أوقات فراغه. استمعت إلى ما قاله، وبهتُ.. وغصت بداخل دوامة من شرود دام لثوان لا أعرف كم امتدت طولا؟.. عدت إلى سامح الذي كان مازال على التليفون، وأجبته بقبول دعوته لي في العيادة في الثانية بعد ظهر اليوم.

كانت الساعة تعبر فوق رأس الثانية ظهرًا.. لحظة شرود أخرى عاودت التحليق والدوران في مجالى الذهنى.. صور متلاحقة داخل أسانسير الفندق تطاردنى.. صورة كبيرة للتاكسى يتوقف أمام المحطة، يفتح أبوابه الأربعة، ورؤوس لرجال بوجوه سود، هم نفس الرجال الذين كانوا بحلم النحات، تطل من أبواب التاكسى.. ضربت بقبضة يدي أنتزع عقلي من شروده. أمسكت قلمًا وأوراقًا كانت أمامي على المكتب، بدأتُ أضع القلم على الورق وأرسم دوائر وخطوطًا متصلة بغير معنى، وأنا أحمل رأسي الثقيلة فوق كف يدي المغصوبة على حملها.

انفتح باب غرفتى بالمكتب.. دخلت مها.. تتألق كامرأة فازت في مسابقة ملكات الجمال.. ليلة الأمس مازالت ترسم ملامحها فوق وجهها النضر.. جلستْ أمامي.. كأنها كشفت الستار عن الأتعاب التي تسكن أحشائى:

- مالك يا حبيبي؟.. شكلك تعبان.. تحب نلغى الميعاد.
- أحلى حاجة فيكى يا مها أنك بتسألى السؤال، ودايما إجابته جاهزة عندك.
- عشان بحس بيك.. ما تقوم نمشى. ونخلى الميعاد لبكرة.
- لكن ميعاد إيــه اللي بتتكلمى عليه؟
- ميعادنا مع مدير مصنع الملابس عشان التدريب اللي ها نعمله لموظفين وعمال المصنع.
- كنت ناسى.. يا ريت ما تعتمديش علىَّ في أني أفتكر أي مواعيد أو اتفاقات.. أنت عارفة حالتي.
- سلامتك يا حبيبي أنت بخير.. يلا عشان نلحق ميعادنا.
- ممكن تروحى أنت؟عشان عندي ميعاد مع سامح كمان شوية.
- تحب آجى معاك ونخلى ميعاد المصنع يوم تانى؟
- انا مش رايح أزوره.. أنا رايح له يعالجنى.
- أيــه اللي جد جديد؟ وألا اقتنعت بكلامى.
- أنا طول عمري مقتنع بكلامك.
- أنا هسيبك براحتك.. وأبقى طمَّنى عليك.. بايَّ.

تذكرتُ علا وهي تنطق بكلمة (بايَّ) وهي تسحق حرف الياء. خرجت مها مؤكدة خروجها، بسحبة عنيفة لباب الحجرة الذي انغلق خلفها، وكأنها أرادت أن تجعلنى لا أستقبل أفكارًا تشوش على صورتها التي تركتها لعقلى، لكي يلهو ويفرح بها، فيؤجل اشتياقاتى حتى نتقابل بمنزلنا أخر اليوم.

التقطتُ تليفونى المحمول.. أخرجت اسم علا من القائمة، وضغطتُ زر الاتصال.. لم أنتظر طويلًا.. بعد أن تبادلنا تعبيرات التحية، وسألت عن حالها، وحال أختها سهام، وشكرتها على مشاركتى الأوقات الجميلة في الإسكندرية.. فاجأتها بسؤالي عن محمد؛ خطيبها الذي قدمته لي بمحطة القاهرة عند وصولها من ساعتين تقريبًا، وكانت هذه الدقائق الممتدة من محادثة التليفون، مقدمة لسؤال أنحشر في حلقى، وعانيت حتى تقيأته، وكأنه يسحب معه جزءًا من أحشائى:

- أنتِ أتغيرتِ معايا ليه؟
- مش فهماك يا أستاذ فؤاد
- أنا اللي مش فاهم حاجة.. كان فيه بنا كلام مختلف في إسكندرية وفي القطار كمان.
- أستاذ فؤاد أنا لسه مش فاهمة أنت بتتكلم على أيــه؟
- وأيــه أستاذ دى اللي أنت بتنادينى بيها، احنا مش كنا لغينا المسافات اللي بينا.. أيــه غيَّرك؟
- جرس الباب بيرن، خليك معايا.....
- علا.. علا!

بقيت ملتصقا بجسد المحمول، منتظرًا أن تعود لمكالمتى بعد أن تفتح باب شقتها الذي تدخل من أجل إنهاء المكالمة، ولم أعرف حينها، أنها فتحت الباب لأخر ضيف أتوقع أن يزورها، كانت الزائرة التي وقفت على بابها في هذه اللحظة، هي مها؛ زوجتى، والتي لم يخيل لي أنه توجد بينهما أي علاقة من أي نوع، ولم أكن أتوقع السبب الذي لأجله قد ذهبت إليها؟

وماذا دار بينهما، وبعد حوالي نصف الساعة من مكالمتى الأولى لها عاودتُ الاتصال بها مرة ثانية، ولكن محمولى استقبل ردًا برفض مكالمتى. عشر دقائق وسمعت رنة موبايلى، كانت علا تعاود الاتصال، اعتذرتْ لما حدث وأخبرتنى أنها استقبلت ضيفتها بالمنزل، وهذا ما تسبب في انقطاع المكالمة بيننا. لم أفكر في أمر الضيفة، وطلبت مقابلتها مساءً في الثامنة، وافقتْ وتركتُ لها تحديد المكان، ومكالمتى مرة أخرى.

الساعة الثانية، كنت حريصًا على مقابلة سامح، فكما فهمت من مكالمته، فإن الأمر مهم، ولا يستدعى التأخير حتى نلتقى في الموعد القادم الذي حدده لي في الجلسة الماضية.. لم يستغرق وقتًا طويلًا قبل أن يصعقنى بالأمر الذي كشف سره، والذي على الرغم من أنه لم يسقط من ذاكرتى، إلا أنه سقط من قائمة اهتماماتى.

- فؤاد أنت ليه ما حاولتش تتصل بالفندق، وتعرف موضوع حادثة الأسانسير، حصل فيه أيــه؟
- مش عارف ليه ما اهتمتش.
- أنا أقولك.. لأنك كنت شاكك في أنك تكون شفت حادثة في الأسانسير.
- يعنى أيــه؟.. مش فاهم.
- أنا اتصلت بالفندق، وعرفت أن ما فيش حاجة حصلت.. يعنى ما كنش فيه حادثة أصلا.
- واللى أنا شفته؟
- أنت متأكد.. أنك شفت الحادثة؟.

- متأكد.. لكن لما العامل دخل الأسانسير هو والنزيل الجديد، وما حصلش منهم أي حاجة، شكيت، لكن ما تصورتش أبدًا يكون الموضوع، أن اللي شفته.....

لم أكن مستطيعا أن أنطق بالتفسير الذي دار برأسي وتركت سامح، يفسر الأمر الذي لم يكن محتاجًا لتفسير، ولكنه يحتاج تحليل نفسى وعلاج ينقذنى من مصيبة يمكن لها أن تبتلع مستقبلى.

- فؤاد.. اللي أنا متأكد منه دلوقت وأنت كمان متأكد منه، أنه ما كنش فيه حادثة في الأسانسير.. الحادثة أتصورت في خيالك وأنت في اللحظة دى كان وعيك في أضعف حالاته، فسمح للصور الموجودة في عقلك الباطن أنها تجسد نفسها في المكان المادى الملموس اللي قدامك، وشفت الحادثة قدامك كأنها حقيقة.
- وإيه اللي وصلنى للحالة دى؟
- ما تقلقش.. العلاج في أيدينا.. حالة النسيان اللي عندك، بتخلى عقلك يكمل الجزء الناقص في وعيك، بأحداث بيخلقها العقل الباطن، ويصدقها الوعي، اللي في الوقت ده بيبقى ضعيف زي ما قلتلك، ويفرضها على الواقع المادى، وأنت بتكمل الأحداث وتشوفها على أنها جزء من الواقع.
- أنا مش عارف دلوقت أيــه في حياتى حقيقى وأيــه اللي من خيالى وعمره ما حصل في الواقع؟
- على فكرة يا فؤاد.. الحالة بتاعتك دى موجودة في رسالة الماجستير بتاعت مها.
- مها مش بتتكلم معايا كتير في اللي يخصها.

- علاقتك مع مها جزء من العلاج.. أنا بفكر أقبل دعوتك على العشاء بكره.. أيــه رأيك؟
- أنت جايٌ زيارة، ولا ها تكمل جلسة العلاج؟
- لا علاج ولا حاجة.. الموضوع بسيط وها يتحل لما نتعاون أنا وأنت ومها.
- ومها؟!
- أيوه.. ما أنا قلتلك علاقتك مع مها هيبقى لها دور كبير في العلاج.
- يعنى أنا عندي أيــه بالظبط؟
- الحالة دى اسمها.. Confabulation. الشخص المصاب بالحالة دى، بيحاول يملى الفراغ اللي في الذاكرة المفقودة عنده، بحاجات مش صحيحة ومختلفة. يعنى يشوف حادثة ما حصلتش.. يقابل حد ما شافهوش من فترة. ولو كان الشخص ده حد عاطفى، ممكن يختلق علاقة عاطفية أو جنسية، ويصدق أنه عاشها وهي ما حاصلتش من الأساس.

وقعت علىَّ كلمات سامح، كالضربة القاضية من قبضة ملاكم، كادت تصرعنى. تذكرت الآن أن مها كانت تتكلم معي عن حالة النسيان، وألمحت لتطورات قد تحدث للحالة، تصل إلى حد تصور أحداث لم تحدث. أتهمتها بأنها تبالغ في حالة النسيان التي أمر بها على أنها حالة عارضة، وأن هذه الحالة لم تترك صغيرًا أو كبيرًا إلا ولعبت بعقله، فكانت تقول أنها تؤكد على أنها حالة عارضة، وتختلف عن حالات المرض النفسى المتقدمة التي يفقد فيها المريض ارتباطه بالواقع ويتوهم حياة خيالية

ويعيش فيها. قررت أن أنسى الأمر ولا أبالغ في اهتمامى به، وأنشغل بعملى الذي أجد فيه ضالتي.

لم يكن من الممكن أن أفعل شيئًا آخر، ولا أن أذهب في أي مكان. رجعت إلى البيت، وصعدت السلم الداخلى، إلى الطابق العلوي، ولم ألحظ عدم وجود مها.. أغلقت حجرتى، وودعت الساعة التي كانت، تخبرنى بأنها تشير إلى الخامسة عصرًا، وأنها ستمنحنى ثلاث ساعات، قبل أن يحين موعدى مع علا، لذلك يمكننى أن أفعل بهذه الثروة من الدقائق، ما يحلو لي، ولكني لا أملك أن أصرف هذا الوقت في شيء آخر غير النوم. استسلمت في سريرى، وغلبتنى إغفاءة سريعة سحبتنى إلى عالم يحكمه اللاوعى، هذا العملاق المجهول، الذي يشكل حياتنا الداخلية، ويمنحنا الطاقة العظيمة التي تحركنا أثناء يقظتنا الطويلة.

بعد أن غلبنى النوم، وصلت مها إلى المنزل، صعدت السلم.. فتحت باب الحجرة التي أنام فيها، وضعت شيئًا في دولاب الملابس، أخرجته من حقيبتها، تابعتها من خلال رؤية ضبابية. بدلت ملابسها، وانفردت إلى جانبي، اقتربت منها، وأنا مازلت أحسب نفسي واحدًا من الحائزين على منحة قيلولة هذا النهار. علقت ذراعها على كتفى.. نظرتْ بداخل عينىَّ عبر فتحة ضيقة، هي كل ما تركه النوم بعد أن أغلق جفنى.. أكملت نومى الذي دام إلى السابعة من المساء.. استيقظت.. ثم تحركت بحرص من جانب مها، لكنها استدارت نحوي، وسألتني:

- فؤاد.. سامح قالك أيــه؟
- طمنى خالص.. وقاللى أن اللي عندي سببه شوية إرهاق.. هو اللي مسبب لي حالة النسيان.
- ما قالكش حاجة تانية.

- لا ماقالش.
- أنت رايح فين؟
- عندي مشوار مهم هعمله وهارجع على طول.
- ها نسهر النهارده مع بعض؟
- أيــه المناسبة؟
- فيه مناسبة حلوة.. النهارده عيد جوازنا.. ما تنساش الهدية.
- كل سنة وأنت طيبة
- أنا دعيت سامح، وعلا.
- علا؟!.. علا مين؟
- اللى بتشتغل في عيادة الدكتور سامح.
- أنت تعرفيها؟
- أيوه.. وأنت كمان تعرفها.. دى تبقى أخت سهام.. سهام حبيبتنا، أيام زمان.. الإسكندرانية.
- ما قلتيش قبل كدا أنك تعرفيها.
- أنا اللي شغلتها عند سامح.. طلع في دماغها تعمل ماجستير في علم النفس، وقالت تبقى قريبة من مجال دراستها، كلمتنى سهام ووصتنى عليها، ومن حوالي سنة جات لى، وقابلتها على سامح، واشتغلت معاه.
- فيه حاجات كتير ما بعرفهاش، غير لما ييجى وقتها وتبقى عايزه تقوليها.
- كل حاجة بميعاد يا حبيبي.

خرجت من المنزل وخطواتى مثقلة بما عرفته، عن علاقة مها وعلا.. لم تظهر علا في حياتنا من قبل.. سنة وهي تقيم بالقاهرة، لم أرها مع مها ولا مرة. ولم يأتِ ذكرها في منزلنا أبدًا. وفجأة تظهر علا وتحتل هذه المساحة في حياتى، وتصبح جزء من اهتمامات مها! وبعد ساعات ستكون في منزلنا تحتفل معنا بعيد زواجنا.. أشعر أنني أمام لعبة البازل، هذه الصورة المقطعة إلى أجزاء ويكون على اللاعب جمع الأجزاء إلى بعضها لجعل الصورة تكتمل مرة أخرى. ولكني أشعر بأن صورة العلاقة الجديدة غير مكتملة التركيب، أو أن التركيب ينقصه بعض الترتيب، لكي تلتقي كل الأجزاء وتتشابك معا وتكوَّن الصورة الواضحة بتفاصيلها الكاملة.

جلست في جزيرة المعادى، وجعلت نظراتى الشاردة تستحم في البحيرة التي في مواجهتى، فأنا معتاد على الذهاب إلى هناك، كلما أردت الهروب، من أجل اختطاف لحظة من لحظاتي الرائعة، أنتظرتها ولم تأتي.

وصلت علا في خطوات عارضة الموضة، اقتربت من الطاولة التي أجلس إليها، وقفتُ لها، فدست يدها الصغيرة بداخل يدي، وجلسنا إلى الطاولة، غرباء كأن شيئًا لم يحدث بيننا في مدينة البحر الأبيض. لحظة صمت، تشتت عندما سألتها عن مشروبها، وضحكت وأنا أكلمها، وسألتها إذا ما كانت ترغب في شيشة تفاح، لنتذكر أوقاتنا في الإسكندرية، فرمقتنى بنظرة حادة، مستغربة ما أقول:

- أستاذ فؤاد فيه حاجة غريبة في مكالمتك ليَّ.. أنا مش فاهماها.
- أنا اللي مش فاهمك.. أنا متهيألى الوقت اللي قضيناه مع بعض من يومين، ممكن يفهمك، أننا قريبين من بعض، والغريب أنك مش فاهمة.
- أنا فعلًا في اليومين دول كنت حاسة أننا نعرف بعض من زمان.
- بس كدا؟.. احنا مش بس معارف.. احنا حبايب.

- (فزعتها كلماتى.. انتفضت في مكانها)
- أنا لازم أقوم دلوقت، أنا معزومة...
- على عيد جوازنا، أنا ومها.
- دكتورة مها تبقى صاحبة سهام من زمان.
- عارف.. عارف كل حاجة، عشان كدا أتغيرتِ
- أتغيرت عن أيــه؟
- نسيتِ اللي حصل بنا؟
- محصلش بنا حاجة
- واعترافاتنا بأننا بنحب بعض.
- مش ممكن.
- أنت ناسية اللي حصل بنا في القطار، لما قعدتِ جنبى، قلنا أيــه، وعملنا إيــه؟
- أنا في القطار ما كنتش قاعدة جنبك. أنا شفتك على المحطة. مش أكتر.
- علا.. أنت بتنكرى أنك طلبتِ من الراكب اللي كان قاعد جنبى، يبدل معاكِ.. ويسيبلك الكرسى بتاعه، وجيتِ وقعدتِ جنبى، ورجعتِ مكانك قبل ما نوصل محطة إسكندرية بفترة بسيطة.
- أنا ركبت القطار وما تحركتش من مكانى لغاية ما وصلت إسكندرية. لا بدلت الكرسى بتاعى، ولا قاعدت جنبك طول وقت السفر.
- أنت بتقولى ليــه كدا.. فيه أيــه حصل خلاكِ تنكرى؟
- أنا لازم أمشى دلوقت.

انطلقتْ علا بلا أستأذان، وأنا أتابعها وهي تمر من باب الخروج.. لابد أن هناك لعبة، هل من الممكن أن تكون مها أجبرتها على هذا الإنكار؟.. هذا غير معقول، كيف ستعرف مها ما دار بيننا، وحتى إن عرفت، فمن سيعلنها بأسرار علاقتنا، ومشاعرنا التي تلاقت هي وماء البحر المتهيج الثائر.. لم يبقى غير تفسير واحد معقول يرد على هذه الحيرة، أنها الحالة الجديدة التي أمر بها والذي سماها سامح بتعبيره، (Confubulation)، هذه الحالة التي تجعلنى أملأ الجزء الناقص من الذاكرة، بأحداث أتخيلها، ويفرضها عقلى على الواقع المادى الذي أعيشه في هذه اللحظة، فأصدق أنها حقيقة. هذه الحالة أنا شرحتها وفسرتها قبل أن يفسرها لي سامح، أنها حالة اللحظة التي بنيت عليها فلسفتى ومبرراتى في إقناع نفسى ومن أردت لها أن تشاركنى اللحظة، بأن الحياة لحظة نولد عند بدايتها، ونموت على أطرافها الأخيرة، ثم تتجدد اللحظة وتتجدد فيها حلقة جديدة من مسلسل الحياة. فكانت هذه الفكرة تقنع شريكتى بإسقاط قيود القيم البالية، والمبادئ الرنانة مثل نحاس يطن، فتسقط في بئر اللحظة، ونعيش أنا وهى، أروع ما في الحياة، ولكنها كانت لحظات حقيقية، لا أتوهمها، بل هي موجودة ومحفورة في واقع أصنعه بيدى، أما هذه اللحظة المفتعلة التي أوجدتها حالتي المرضية الآن، فهي لحظة نخلقها من عجين خيالاتنا وأوهامنا، في زمن أصبح فقيرًا، لا يملك لحظات حقيقية رائعة، يُهادينا بها من وقت لآخر

عدت إلى المنزل لأجد سامح في انتظارى، ومها تدور في المنزل، بين طاولة الأكل ومطبخها الأمريكى الذي يتخذ ركنًا حيويًا في البهو الكبير.. اعتذرت لهما عن التأخير، وجلسنا أنا وسامح نراقب حركة مها السريعة، والمتألقة.

- مها: أتأخرت علا، .. أنا اتصلت بها ومش بترد.
- سامح: أنا شفتها من ساعتين في المعادى.
- مها: أكدت عليها ما تتأخرش.. أنا هكلمها تانى.

قبل أن تصل يد مها إلى تليفونها فوق الطاولة التي امتلأت بأصناف الطعام، كان التليفون يرن، وتوقعت بما لا يقبل الشك، أنها علا، وأنها ستعتذر، وهذا ما حدث، بعد حوالى أكثر من عشر دقائق دام خلالها الاتصال بينهما، مما جعل مها تدخل حجرتها، وتتركنى أحضَّر بعض الأطباق التي أعدتها، لطاولة العشاء.. حين دخلتُ إلى الحجرة من أجل استعجال مها، وقعت على أذني كلمات مبهمة من جملة على لسان مها كانت قد انتهت لتوها:

- كان لازم تعملى كدا.. ده اللي اتفقنا عليه.

لما وجدت أن الكلمات التي سمعتها تحمل قدرًا كبيرًا من الجدية، تركت آثارها على وجه مها، أسرعت بإغلاق الباب خلفى، وعدت إلى سامح، الذي كان قد رجع بظهره إلى الخلف، في جلسة تفصح عن أنه استعد لقضاء وقتًا أطول في مقعده قبل أن يعمل أدوات السفرة فيما لـدَّ وطاب.

خرجت مها بعد عشر دقائق اختبأت فيها بداخل حجرتها، وكأنها أنهت لتوَّها، معركة كسبتها. وأعلنت اعتذار علا عن الحضور لظروف طارئة لم ترتب لها.

دعونا سامح لتناول العشاء، فوقف ثم تقدمنا وجلس حول الطاولة، يرسل نظرات متفحصة، إلى الأطباق الموزعة بعناية، وقد تنوعت أصناف

الطعام فيها، شهودًا على مهارة المرأة التي أعدتها.. بقايا حوار حول علا، كان قد ملأ الدقائق الأولى حول طاولة الطعام، لم يزدنى معرفة بها، أكثر مما عرفته عنها في الأيام الماضية. انتهينا من الوليمة التي أقيمت على شرف احتفالنا بعيد زواجنا السادس.. تحركنا إلى الصالون الذي أظهر ذوقًا راقيًا، ومقامًا رفيعًا من أزمنة ماضية، واتخذنا أماكننا بحيث جلس سامح إلى جواري ومها قبالتي ثم أخرج سامح هديته، وصحبها بتهنئة رقيقة وقصيرة.. فتذكرت هديتى التي كنت قد حشرتها في جيبي، أحضرتها بناء على تعليمات تلقيتها قبل خروجى من المنزل، قدمتها لها مع قبلة زوجية بطابع رسمي، وابتسامة كبيرة، وفي دلال لا يخلو من وقار، أخبرتنى أنها أحضرت لي هدية وستقدمها لي عندما نصعد إلى حجرتنا بالطابق العلوي. ثم تذكرنا مع سامح أيامًا جميلة مضت.. ضحكنا، وتكلمنا عن أخبارنا، وخططنا المستقبلية، ثم سكتنا لبُرهة قطعها سامح بطلب حاسم:

- مها.. أنا عايز أقعد معاكِ شوية.. بعد إذنك طبعا يا فؤاد.
- اتفضلو.. انا ها أسيبكم، وأدخل مخزن الكراكيب القديمة بتاعى، فيه حاجات في وسط الكراكيب ليها قيمتها، ها أدوَّر عليها.

ابتسم سامح، ومشيت أنا في اتجاه حجرة الكراكيب، بخطوات ثابتة تعرف طريقها، فتحت الباب، ودخلت، ثم أغلقت الباب، على حوار كان قد بدأ يتحسس كلماته بين سامح ومها:

- مها.. أنا هتكلم معاكِ بصراحة.. أنت عارفة أني مش بأعرف أوارب.
- أنا سمعاك يا سامح.. قلقتنى.. الموضوع بخصوص أيــه؟
- حالة فؤاد، أنت أكيد عارفة وصلت لأيــه.

- أنا من بدرى قلتله لازم يروحلك.
- أنت عارفة الحالة وصلت لحد فين؟ فؤاد دخل في مرحلة Confubulation.
- كنت عارفة طبعا أن الحالة في طريقها لكدا.
- أنا طبعا مش محتاج أشرحلك، أنت أدرى منى بها، ده موضوع رسالة الماجستير بتاعتك.
- تفتكر أنا ممكن أساعده إزاي؟
- هو ده بالظبط، اللي أنا قصدت أكلمك فيه.
- حالة فؤاد محتاجة لحد يقرب من مشاعره ويملأها، عشان ما يضطرش يلجأ لخياله اللي بيكمل له حياته بأوهام وأحداث محصلتش.
- اللى أنا عارفاه أني ها أشتغل على حاجتين، من محركات الشعور عنده، احتياجاته العاطفية، واحتياجه للاهتمام.
- أنا كدا أبقى مش محتاج أكمل.. خيوط الحالة في أيدك، ودورك كبير في علاجه، وفي نفس الوقت أنا موجود في أي وقت، وخلى فؤاد يداوم على ميعاد الجلسات في العيادة.
- أكيد يا سامح.. احنا ها نكمل بعض.
- أنا لازم أقوم، وفؤاد سرح مع مقتنياته وذكرياته في المخزن. كل سنة وأنتم طيبين.

خرج سامح بعد أن رسم خطة علاجى وتركها في يد مها، التي كانت قد بدأت في تنفيذها قبل أن تتسلم المهمة من سامح.. طرقات مها على باب

حجرة الكراكيب، أنهت مهمتى بالداخل، فتحت لها الباب.. لم تتكلم، أخذتني من يدي وصعدت بي السلم كطفل تأخر على موعد نومه.

وما أن دخلنا حجرة النوم، حتى أسرعتْ نحو دولاب الملابس، وتركتنى في منتصف الحجرة، فتحتْ الدولاب، وأخرجتْ ظرف من الحجم الكبير، كانت قد دسته بين ملابسها، وأنا نائم قبل أن أذهب لمقابلة علا.. فتحت الظرف وسحبت منه ورقة كبيرة عليها أختام وتوقيعات، ورفعتها أمام عينىَّ داخل منطقة الرؤية، وهي تضحك بملءِ فمها:

- أحلى هدية عيد جواز.
- إيــه ده؟
- ده عقد بيع خالص التمن من محسن طليقى، بـشقة المعادى. ومن غير ما أدفع ولا مليم.
- وأيــه اللي خلاه يعمل كدا؟
- شطارة مراتك.. أنا بأعرف أوصل للى أنا عايزاه.
- إزاي؟ .. أنت ما قلتليش على الحكاية دى قبل كدا.
- ما أهو أنا مش ممكن أخسر أبدًا.. حطيت في سكته بنت من اللي بيعرفوا في التعامل مع الرجالة، كتبلها ورقة عرفى، وإيصال أمانة، ضمان لحقها بأكتر من تمن الشقة.
- معقولة محسن بالسذاجة دى؟!
- عندك حق هو مش بالسذاجة دى طبعا، لكن السر اللي أنت ما تعرفوش أن محسن، عنده مشكلة نفسية. محسن مش طبيعى في

علاقته بالستات، ومش أي واحدة تستحمله، وده كان السر اللي وراء طلاقنا.

- مش قادر أفهم، يعنى أيــه مش طبيعى؟
- محسن كان من الرجالة اللي لازم يتعذب ويتهان عشان يحس بمتعة.
- (حالة ماسوشية) انحراف في سلوكه الجنسى، ومحسن كان زيادة شوية، وحالته كانت حالة خاصة، كان في أغلب الأوقات بعد ما يتعذب يتقلب لوحش (سادو–ماسوشية)، لكن تطورات الحالة عند محسن كانت غريبة شوية، ما سمعتش ولا قريت عنها قبل كدا.
- كان ممكن تطلبى الطلاق من الأول.. ليه قعدتِ معاه كل الفترة دى؟
- فى بداية جوازنا كان الموضوع بسيط، وقدرت أتعود عليه، لكن بعد كدا، الموضوع بدأ يتطور وكان بيحتاج مش أني أهينه وأعذبه وبس، لكن كمان أني أكسر له حاجة مهمة وعزيزة عليه، أو أني أقطع له الرسومات الهندسية اللي قعد سهران عليها ليالي عشان يخلصها، وبعديها يقعد يبكي زى العيال ويتقطَّع. وفجأة يتقلب لوحش وهو معايا في السرير.
- أيــه علاقة اللي بتحكيه، بخطتك عشان تاخدى منه الـشقة؟
- جيالك في الكلام.. محسن كان أول ما يدخل في بداية الحالة دى يبقى مستعد يعمل أي حاجة عشان يوصل لنهايتها.. وقبل النهاية بيبقى واحد تانى، مسلوب الإرادة، وتحت أمر اللي يساعده على

الوصول للنهاية اللي هاتريحه، وده كان بيخليه يعمل أي حاجة وهو مش مدرك تفاصيل اللي بيعمله.

- أنا مش مصدق اللي بأسمعه.. كملى.. وبعدين.
- خلصت الحكاية، أنا لي أكتر من سنة وأنا برسم وأخطط، لغاية ما وصلت للى أنا عايزاه.
- وإزاي وثقتى في البنت اللي اتجوزته عرفى؟ ما خفتيش بعد كل التخطيط ده، أنها تاخد منك الشقة.
- كنت عاملة احتياطاتى، ومضيتها على أوراق توديها في داهية لو بس فكرت.

شردتُ إلى اللحظة التي استقبلت فيها المرأة الجميلة في مكتبي منذ عدة أيام، الزائرة التي جاءت تسأل عن مها، وجلست معى، وكنت متأكد من أنها ليست من المترددين على المكتب من أجل خدمات استشارية، هذه المرأة لابد أنها بطلة الخطة التي رسمتها مها للعبتها مع محسن. أردفتُ بعد أن عدت من شرودى الذي لم يستغرق بضعة ثوانى:

- مها! احنا متجوزين من ست سنين، لكن الليلة دى أنا شايفك واحدة تانية.
- مش أنت طول عمرك بتحب تَدخل الناس في ألعاب، وتحطلهم قواعد اللعبة، عشان في الأخر تطلع أنت الكسبان؟ .. أنا عملت زيَّك.

- أنت بتسمى اللي عملتيه ده لعبة؟ دى جريمة.. أنا كنت فاكر أن طبيعتى فيها لمسة إبليسية، عشان بحب أدخل الناس في ألعاب، أخرج منها أنا الكسبان، أنت غلبتينى يا مها، طلعت أنا تلميذ، وأنت دكتورة ورئيسة قسم. (ثم صفقت لها بيدى)
- أنت عارف أن الشقة اللي أنا أخدتها منه، لي فيها زي ما هو ليه، حطيت فيها فلوس ودهب، قعدت أجمع فيه طول حياتى معاه، وكان لازم أسترد حقى.
- أنا بدأت أخاف منك
- أنا كنت فكراك ها تفرح.. مش تخاف.. وبعدين تخاف ليه؟ احنا علاقتنا ببعض مختلفة.. وكمان أنا بحبك، وهحافظ عليك بأى تمن.
- أهو أي تمن ده هو اللي مخوفنى.. يا ترى ممكن يكون أيــه التمن اللي مستعدة تدفعيه وتحافظى علىَّ؟
- أنا خلاص بقيت مطمنة أنك رجعت زي الأول، مليان مشاعر، وبتحبنى، وشايفنى ملكة، أنا مش محتاجة أكتر من كدا.
- مها ممكن أطلب منك طلب من غير ما تزعلي؟
- أه طبعا.. أنت تأمر يا حبيبي.
- أنا عايز أقعد مع نفسي شوية، هاسيبك وأنام في الأوضة اللي تحت.
- معقولة في ليلة زي دى؟!
- بكرة نعوضها، تصبحى على خير، ومبروك عليك الشقة.

تركتها وفرائضى ترتعد، مما سمعته منها هذه الليلة. كانت الساعة قد تجاوزت الثانية بعد منتصف الليل، دخلت الحجرة بالطابق الأرضي، أغلقت النافذة وأسدلت الستائر، وتكومت في السرير. عينى ظلت مفتوحة تحدق في سقف الحجرة، ورأسي تعيد مشاهد قصة مها مع زوجها مرات ومرات، حتى أنني شاهدت على شاشة عقلى تفاصيل الأحداث التي كانت قد سقطت من قصتها وهي تحكيها، النوم أثقل جفونى، فنمت ومازالت أحداث الليلة الماضية تتواتر على رأسي بلا توقف، النوم يسحبنى إلى أعماق بعيدة، والضوء الخافت في الحجرة، يسقط في منطقة اللاوعىْ، ليبدأ في استكمال ليلة لم تنتهي بعد.

نولد.. نتحرك.. ونمضي في كل الطرقات

وحين نملك وقتًا.. نتوقف

نتوقف عند المفترق....

ما بين طريق في اليسار.... وبين طريق لليمين

نختار من عدة طرق

فقدرك أن تختار

فالمستقبل يولد.. من رحم لحظة اختيار

الليلة السابعة

الاختيار .. لعبة نفوز فيها بالمستقبل

انفتح باب حجرة الكراكيب، لأرى أمامي طريقًا زراعيًا طويلًا، يمتد داخل الأفق البعيد، على جانبه الأيسر قناة مائية، بطول الطريق، تتسع بقدر ثلاثة أمتار. طحالب خضراء على الجانبين تتعلق بالماء، الذي يتدفق في بطيء طفل يتسكع، رغبة منه في الوصول إلى المدرسة بعد أن تغلق أبوابها. على الجانب الآخر من الطريق، خطوط طولية وعرضية خضراء مزروعة بخضر وأشجار، مع عيدان القمح الذهبية، التي ترقص في الحقول، وتحتفل بأوقات الحصاد. خطواتى الفرحة، ترقص مع عيدان القمح.

مشيت دون أن ألتقي بأحد، وبعد وقت من سيرى على الطريق الزراعى الممتد في الأفق، رأيت عشرات من الرجال والنساء يرقصون حول أكوام من القمح، شدنى المنظر، واقتربت أكثر. أصبحت جزءًا من كتل اللحم المتلاصقة في حلقة كبيرة في مكان يسمونه الجُرن، يجمعون فيه محصولهم كل سنة. فجأة وجدت كبيرهم يمسك شعلة تتوهج بنار، ويرميها بداخل أكوام القمح التي بدت كأهرام متراصة بجوار بعضها وكأن معمارى من زمن الفراعنة هو الذي وضعها بهذه الطريقة. القمح يشتعل والناس يرقصون ويغنون، وأنا وحدى الذي أصرخ، ولا أحد يهتم. في دقائق كان حصاد القمح قد تحول إلى رماد أسود، يعلو في أكوام قريبة من الأرض. نظرت في الوجوه الفرحة من حولى، وجدتهم يضحكون لغرابتى، وبعضهم يلتمس العذر ويقول عنى أنني غريب لا أفهم شيئا.

أكملت سيرى فوق الطريق الزراعى الطويل.. وقفت أمام البوابة الكبيرة، المغلقة على دار كبير يملكه جدي، وحديقة تمتلئ بكل أصناف الفاكهة والخضروات، تسيجها أشجار مرتفعة وعدد من النخيل الذي يقف كالحارس المكلف بالحماية. ويتوسط الحديقة والمنزل طريق ضيق يمر بينهما. البوابة الكبيرة التي تفصل كل هذا عن الطريق الزراعى، كان معلقا فوقها يد حديدية كبيرة لها خمسة أصابع، مربوطة في مفصلة متحركة، من تحتها قرص مستدير من الحديد.. أمسكت باليد الحديدية، رفعتها وأنزلتها فوق القرص المستدير، فأحدثت صوتا مرتفعًا، سُمع الصوت بداخل المنزل، فُتح الباب، سمعت أزيزه عنيفًا، سرت فوق الطريق الضيق، كنت مازلت أذكر أن الحديقة الكبيرة في منزل جدي كانت تجثم على الجانب الأيمن من الطريق الضيق. خطوات، ثم خطوات، أبحث عن الباب الخشبي الصغير الذي يغلق على الحديقة بذراع خشبي تدخل في فتحة مصنوعة داخل السور المبنى من الطين والمحيط بالحديقة.. الحديقة غير موجودة، كان مكانها بناية شاهقة من الطراز الحديث، وقفتْ شامخة فوق أنقاض الحديقة التي شهدت طفولتي، بأحلامها البسيطة وأمنياتها الحمقاء. الحديقة التي كتبتُ فوق صدر واحدة من أشجارها، الحروف الأولى من اسمي واسم حبيبتى، الحب الأول المعجون من براءة المراهقة، وأشواقها العذرية الجميلة. لم يتبقَ شيئًا، حتى أطلال الحديقة هي خيالات وذكريات مدفونة تحت البناية الحديثة.

قابلنى جدي، الرجل الحكيم الذي كان يعلمنى دون أن يفتح كتابًا، أو يمنحنى قلما، والذي لم أسأله يومًا عن أي مرحلة تعليمية، كان قد تجاوزها وحصل على شهادته فيها. سألته بعد أن تبادلنا عناقا باردًا:

- وأنا قادم إلى هنا، رأيت الناس في الجرن يحرقون القمح، ولا أحد يصرخ أو يستغيث!
- ولما الاستغاثة يا ولدى؟
- من أجل حصاد القمح الذي يحترق.
- (ضحك) ثم قال: سأحكى لك الحكاية، وسوف يذهب عنك الاندهاش.
- أنا أسمعك يا جدي.
- فى يوم، ذهب كبيرنا إلى المدينة فوجد أن دقيق القمح الأسود، يباع في الأسواق بثمن يفوق ضعف الثمن الذي يباع به دقيق القمح الأبيض، ولما عاد إلى بلدتنا، جمع الناس وأخبرهم بما رآه. فتعجب الناس لما سمعوه، ومن يومها ونحن نجمع محصول القمح في الأجران، ويأتى كبيرنا ويباركها، ويشعل فيها النار، ثم نجمع الدقيق الأسود، ونذهب به إلى المدينة ونبيعه بثمن أكبر.

ومنذ هذا الحين، والمال في بلدتنا أصبح يملأ مخازننا، واستبدلنا بيوتنا التي من الطين والطوب اللبن، ببيوت حديثة ترتفع إلى السحاب.

ثم أخذنى جدي إلى شوارع البلدة، ورأيت المبانى الحديثة، والناس في ملابس أنيقة غالية الثمن. والأطفال يمسكون بحافظة نقود، يخرجون منها أوراقًا مالية بفئات كبيرة. ووجدت وجوه الأطفال تبدو وقد تجاوزت الستين، ووجوه الكبار مغمومة، يكسوها لون دقيقهم الأسود.. ثم فزعتنى طوابير اللحم المرصوص أما المستشفى الكبير بالبلدة، وبعد أن تجاوزتُ المستشفى بخطوات، رعبتنى شواهد القبور التي شغلت الساحة الكبيرة في وسط البلدة، التي كنا نخرج إليها في مواسم الأعياد نفرح ونحتفل. قرأت فوق لافتة علقها حكيم البلدة على شاهد قبره، كتب فوقها بحروف باهتة يقول (إن احترق حصاد القمح، وكان مبررنا أننا نفعل ذلك، لنبيعه أفضل،

فلدينا العذر. ولكن لو تركنا حصاد الحب، يحترق بلا مبرر، فأى عذر يغفر لنا ما اقترفناه من ذنب، لكنه مفترق طرق، وعلينا أن نختار، نختار لمستقبل، يولد من رحم لحظة اختيار).

نظرت إلى جدي الذي كان ينظر إلىَّ باندهاش وأنا أقرأ ما كتبه حكيم البلدة، بصوت سمعته وحدي، وسألته إن كان قد قرأ هذه الكلمات، هو أو أحد من أهل بلدته، فضحك، وأخبرني، أن أحدًا لا يعرف القراءة، ومن كان يعرف فقد نسى الحروف، وإن لم ينسها، فهو لا يهتم لما يكتبه آخرون ماتوا ولم تبقَ عليهم الحياة. فلو كانت كلماتهم للحياة، فكانت جديرة بأن تتركهم أحياء. ضحك، وضحك، حتى أن اختفى صوته، واختفى الرجل، وسقط المكان في الفراغ الساكت، المظلم، المعلق أمام عينىَّ المغلقة، تحت أثقال اللاوعى.

ترجلتُ في شوارع الفجالة، التي عشقت السير فيها منذ سنوات شبابى الأولى، الازدحام أمام المكتبات، يشعرنى بأن الناس من نفس الصنف، ونفس العجينة ولهم نفس الاهتمامات. دخلت أكثر من مكتبة، ما بين كبيرها وصغيرها، لإحضار أدوات مكتبية ولوازم لتنفيذ عقود واتفاقيات التدريب، التي أبرمت باسم مؤسسة الحياة للتدريب، التي نعمل بها أنا ومها.

توقفتُ على رأس أحد الممرات، أطلت النظر، كان يمشى قبالتي، اقترب منى، لكنه يبدو أنه لا يتذكرنى، أنه محمد خطيب علا، كان يحمل أكياسًا تنتفخ بخيرات الفجالة. اصطدت نظرة سقطت سهوا من عينيه أو أنه رماها صدفة نحوى، وحاصرتها في مجالى، المهم أني تمسكت بها، ولم أتركه يفلت من لقائي، وقف أمامي.. مد يده مصافحا، في احترام بالغ في إظهاره لى، وجدتني أشجعه على مصاحبتى داخل الممرات وبين المكتبات والمحلات، بحجة مساعدتى على إنهاء مهمة الشراء التي كادت تنتهي. بعدها دعوته لركوب سيارتى وتوصيله، رحمة به من زحمة المواصلات،

وضياع حصيلته من الصبر، في الانتظار وتخليص جلده من الأجساد الكثيرة التي ستلتصق به داخل وسيلة الانتقال، إذا جاءت، وحالفه الحظ بركوبها.
جلس محمد في السيارة إلى جانبي، خجولا، يحمل مجاملتى له، ثقيلة فوق كتفيه، وجدتها فرصة، لأعرف كل شيء عن علاقته بخطيبته علا.. فلن يخفى أي أسرار، بل أنه سيقدمها بديلا زهيد القيمة، عن التوصيلة المجانية الذي فاز بها اليوم.

- أنت بتشتغل فين يا محمد؟
- أنا بشتغل في الشركة المصرية للأدوية.
- ومبسوط في شغلك؟
- الحمد لله.. أنا بحب نوعية الشغل اللي فيه منافسة، وتارجت لازم أوصل له.
- واضح أنك متحمس لشغلك قوى.
- وبقالك كتير في الشغل ده؟
- من بعد ما خلصت الجيش، من حوالي ٨ سنين
- أنت صغير على كدا يا محمد، يعنى تقريبًا فيه فرق بينك، وبين علا، مش أقل من ٤ سنين.
- تقريبا كدا.
- وإزاي قبلت الفرق ده بينكم؟ .. ممكن يكون فرق السن مقبول، لو أنت الأكبر.
- ما هو الفرق في السن ما كنش بإيدي.. كان بسبب بابا وماما.
- قصدك، أنهم غصبوا عليك، عشان تخطب علا.

- ضحك بأدب وهو يقول: علا مش خطيبتى.. علا أختى.
- ضغطتْ رجلى على دواسة الفرامل، وأنا لم أرفع الآخرى عن دواسة البنزين، فارتبكت السيارة تحتنا وزمجرت، ثم حاولت أن أسيطر على عجلة القيادة، وتمالك نفسي ومعاودة حديثى مع محمد:
- علا لما عرفتنى عليك في المحطة، قالتلى أنك خطيبها.
- علا، دايمًا تقولى أنها نفسها تتخطب لواحد شبهى، وكانت بتهزر مع اللي تعرفه، وتقدمنى ليهم على أني خطيبها.

كنا قد وصلنا إلى المكان الذي سينزل به، شكرنى.. ودعته وطلبت منه أن يزورنى في المكتب، لأنني قد أنست جلسته، ورغم فارق السن بيننا إلا أنه من الممكن أن تربط بيننا صداقة تعود على كل منا بفائدة كبيرة، كانت هذه هي المعانى التي أكدت عليها، حتى لا يظن أني قصدت من مقابلتى له، أن أعرف شيئًا عن علاقته بمن حيرنى أمرها، وإن كان هذا هو المبرر الحقيقى لما فعلته معه، فكل شيء نفعله، دائمًا له مبرران، أحدهما يبدو حقيقيٌ، وهو ليس كذلك ونعلنه للناس، والآخر هو الحقيقى، ونجتهد في أن نخفيه عنهم.

لم أفكر في شيء، بعد أن خرج محمد من السيارة، أخرجت الموبايل من جيبى، وضغطت أزراره برقم تليفون علا، الذي أعاد رنته المتواترة ثلاث مرات، قبل أن ترد:

- ألوه.. علا.. عايز أقابلك ضرورى.
- أنا مش فاضية.. ومش هاقدر آجى.
- أنت ليه قدمتِ لى محمد أخوكى على أنه خطيبك؟

- أنت عرفتْ منين؟
- لما نتقابل.. ها أقولك على كل حاجة.

- حقيقى مش هأقدر
- ربع ساعة، مش ها أعطِّلك.. الموضوع أكبر من اللي أنت بتفكرى فيه.. لما تيجى ها تفهمى.. مع السلامة..
- استخدمت معها أسلوب، (تكلم وكأن الاتفاق قد تم)، هذا الأسلوب الذي يلغى مقاومة من تتحدث إليه، فيجيبك على طلبك بالموافقة.

أغلقتْ علا تليفونها معى، وقبل أن تُسقط التليفون من يدها، ضغطته بعنف، وأجرت اتصالا مع مها.. وقتها لم أكن أعرف أنها التي تتحدث إليها، ولم أتوقع أبدًا أن يكون هذا الاتصال التليفونى المتوتر مع مها زوجتى. وبعدها عاودت الاتصال بى، وأنا مازلت في المكتب. كان قد مر على اتصالى الأول بها، حوالي ساعة ونصف الساعة، حين قرأتُ اسمها على شاشة محمولى التي تحتفل رنته باتصالها، تصورت أنها ستكرر اعتذارها عن مقابلتى، ولكنها على العكس، كانت تتصل من أجل تأكيد مقابلتنا، وحددت، الساعة السابعة من مساء اليوم موعدًا للقاءنا. واخبرتنى عن قصد أنها أجرت مكالمة مع شخص لن تفصح عنه أبدًا، هو السبب في موافقتها على مقابلتى. لم أفهم ما قالته، ولا من هو هذا الشخص الذي دفعها لمقابلتى، كان كل ما همنى، أنها وافقت على لقائى بها.

أغلقت حجرة المكتب، وانفصلت عن كل شيء، وبدأت أترك العنان لفرسان إبداعاتى تسقط في رأسي كالمطر، ليأخذ كل منهم مكانه، فحاجتى لهم اليوم أكثر من أي وقت مضى، ما قيمة إبداعاتى وأفكارى، وأنا أسقط

فريسة ضعيفة، لحالة مرضية، وعلاقات مهزوزة أتوهم بعضها، أو أتوهمها جميعا، شمرت عن ساعدى، ونزعت عنى رابطة عنق كانت معلقة في رقبتى، وقد انفرجت ربطتها وأخذت راحتها، فأنا لا أحب تضييقها على عنقى، هذا إذا ارتديتها أساسًا.. خرجت من خلف مكتبي وتوجهت إلى سبورة بيضاء معلقة فوق الحائط، على الجانب الأيسر، وفي مواجهة الباب، أمسكت بقلم من أقلام الماركر الأحمر، وآخر أزرق، بدأت أضع به خطوطا، تبدأ من عند خط يدور حول محيط دائرة رسمتها في الوسط وكتبت بداخلها (فؤاد درويش)، وفوق كل خط كان قد خرج من محيط الدائرة كتبت فوقه، ملاحظة أو حقيقة. فهذه الطريقة تساعد عقلى على تداعى الأفكار وإيجاد العلاقات فيما بينها.. فرسان أفكارى بدأت تعمل لأجلي، وكل فكرة، يلتقطها أحدهم بنصل سيفه، أكتبها فوق خط يخرج من الدائرة المرسومة في وسط السبورة، الخطوط تتشابك، وتخرج منها خطوط أصغر، ولكني لم أتقدم كثيرًا، مازالت أفكارى مشوشة، مسحت الخطوط المرسومة حول الدائرة، والدائرة مسحتها أيضًا، وبدأت من جديد.. سرت يمينا، ويسارًا في فراغ الحجرة، علنى ألتقط فكرة في الوجود المحصور بداخل جدران الحجرة.. عدت إلى السبورة، ورسمت خطًا، وكتبت فوق الخط (علا)، وخطًا آخر كتبت فوقه (مها)، وخطًا ثالث، كتبت من فوقه (محسن)، وفوق الخط الرابع كتبت (سامح)، وجعلت كل الخطوط تبدأ من فوق الخط المستدير الذي يحيط بالدائرة التي رسمتها مجددًا وكتبت بداخلها فؤاد درويش. لم تكن في رأسي فكرة محددة، ولكنها أفكارًا جاءت فرادى مع فرسان أفكارى، فعلقتها فوق السبورة البيضاء.

فرسان الأفكار، بدأت تعمل بكفاءة أكبر. بعد أن وضعت الخطوط الأساسية، بدأت أستخدم القلم الأحمر في رسم خطوط العلاقات بينها، هناك

علاقة بين سامح وعلا، علاقة عمل، وعلاقة بين سامح ومها، علاقة صداقة، وبين مها ومحسن، علاقة ثأر. كنت لا أعتقد في علاقات أخرى.

عدت إلى مكتبي، وجُعلت أراقب الخطوط الزرقاء والحمراء. كل الأسماء التي على السبورة توجد بينها خطوط مرسومة باللون الأحمر، أي بينها علاقات، فجأة قفز إلى ذهنى شيئًا نبهنى إلى أن مها وعلا لا تصل بينهما خطوط حمراء. كانت الحقيقة في رأسي ناقصة، والنتيجة أنه يوجد خط أحمر ناقص، علاقة ناقصة.. مها وعلا تعرف كل منهن الأخرى.

قمت وتحركت مرة أخرى إلى السبورة لأرسم خطا أحمرًا يصل بين مها وعلا. أمسكت بالقلم، وغرسته بجسم السبورة، ولكني توقفت.. فالعلاقة بين علا ومها موجودة، ولكنها كانت طول الوقت خارج دائرة معرفتى، ولم أتعرف إليها إلا من ساعات، حين عرفت أن مها هي التي ساعدت علا ووجدت لها عملا لدى سامح بالعيادة، بحكم المعرفة القديمة التي كانت بين مها وسهام أخت علا.. رسمت بالقلم الأزرق خطٌ بعيد عن دائرة (فؤاد درويش) لا يتصل بها وكتبت فوقا منه علا، وخطا آخر منفصل عن الدائرة أيضًا وكتبت اسم مها، وبالقلم الأحمر وصلت بينهما بخط أحمر، ليدلل على العلاقة التي دارت خارج مجال معرفتى. بقي أن أرسم خطًا دائريا يلف حول محيط دائرة كبيرة، تجمع داخلها كل الخطوط التي رسمتها في السابق، وأكتب فوقه (حالتي المرضية) أي أرسم دائرة بمحيط يتسع ليجمع بداخله كل الخطوط السابقة، دون أن يتلامس معها، وفعلت.

عدت مرة ثالثة إلى مكتبي وجُعلت أراقب الخطوط وأستعين بفرسان أفكارى، علنى أجد شيئًا جديدًا.. كنت أبحث عن علاقة، من الممكن أن يخرج منها خطا يصل إلى محيط الدائرة الكبرى المسماة (حالتي المرضية وحالة التشويش التي أمر بها) .. فكرت كثيرًا.. ولغرابة الفكرة لم أقبلها، ولكني كنت منساقًا بقوة لا شعورية دفعتنى أن أخرج محموما إلى السبورة البيضاء التي كاد بياضها يختفي من كثرة الخطوط الزرقاء والحمراء التي

احتلتها. وضعت خطًا ربط الدائرة التي تشير إلى حالة التشويش، بالعلاقة التي دارت بين علا ومها خارج مجال معرفتى بها.. سقط القلم من يدي، وبدأت أرجع إلى الوراء دون أن ألتفت، حتى اصطدمت بالباب.

نظرت إلى ساعتى كان الوقت مازال ثقيلا لا يتحرك، موعد علا يقف على مسافة الساعة والنصف من الآن.. وحش ينهش في فرسان أفكارى، ووحش آخر ينهش في بطنى جوعًا، فكرت أن أذهب إلى جزيرة المعادى مبكرا، لتناول وجبة الغذاء، وكوبا من القهوة أو اثنين، حتى تأتي علا، فربما استطعت هضم طعامى، وهضم الأفكار المشوشة التي تحترق في رأسي ولا تنطفئ.

مر الوقت في جزيرة المعادى، بطيئًا، أراقب الماء في البحيرة التي أمامي، والزائرون يتوافدون، ويرحلون، وأنا في مكانى، أنتظر علا، وأنتظر أسرارًا أردت لها أن تتكشف. أتيت إلى هنا ومعى حفنة من الهواجس، وأخاف أن أعود بها. ولكن ما الذي أنتظره من مجئ علا، هل أريد أن أكسب تأييدها على علاقتنا العاطفية، أم أريد أن أعرف السبب الذي من أجله، قدمت لي محمد أخيها على أنه خطيبها، أنها لم تكن تمزح معي عندما فعلت هذا. في الواقع كنت أنتظر منها حين تأتي، أن تشرح لي طبيعة العلاقة التي خطت خطوطها الأولى بيننا في القطار ثم في الإسكندرية، وماذا عن علاقتها هي ومها التي اكتشفتها مؤخرًا. وهل عرفت مها شيئًا عنا، وطلبت منها أن تبتعد عنى، لذلك أوهمتنى أنه لم تكن بيننا هذه العلاقة التي أتوهمها. حتى أننا لم نكن نجلس متلاصقين في القطار كما قلت لها، ومن قال لها أنني سأصدقها إذا ادعت هذا؟، هي لا تعرف شيئًا عن حالتي المرضية، التي تجعلنى أخلق أحداثًا أو أتوهمها، ويفرضها عقلى على الواقع المادى، وأصدقها على أنها حقيقة.

فجأة تشبثتْ برأسي فكرة حاولتْ أن تضع مبرراتها من أجل إقناعى بأن سامح، قد يكون له دور في كواليس المشهد، الذي أُجبرت فيه علا على تلفيق ادعاءات كاذبة بشأن علاقتنا، لمجرد أنها تريد أن تبتعد عنى، من أجل الوفاء لعلاقتها، التي نشأت مؤخرًا مع مها، وتم ذلك بمساعدة سامح، بما يعرفه عنى من معلومات، فهل جاء الوقت الذي سيشارك فيه سامح من أجل الإيقاع بي لأنني قدمت له أسرارى كعطايا مجانية، وماذا كنت سأفعل، غير هذا لاستكمال طريقة العلاج، فقد كنت ملزما أن أحكى له، ما يساعده على علاج حالتي، وكنت حريصًا فلم أعطه شيئًا من أسرار علاقتى مع علا. ماذا كنت سأفعل غير ذلك؟! .

الساعة جاوزت السابعة والنصف، نظرت في اتجاه الباب، تعلقت عينى على جسم يتحرك في اتجاه طاولتى، لم أصدق أنه هو الذي سيأتى، ولكن بدى الأمر معقولًا جدًا، كان القادم هو صديقي الدكتور سامح. وقفت على قدمى، وصافحته، وتزرعت بصبر هش، وابتسامة سرعان ما فارقت وجهي، وسألته إن كان مجيئه صدفة، وتوقعت منه الإنكار، لكنه على العكس، أجابنى بأنه آتى لمقابلتى، لأنه عرف من علا أنني هنا. دعوته إلى جلستى، وطلبت له قهوته المضبوطة.

- أنت منتظر علا؟ .. هي مش ها تيجى.
- أنت كدا عرفت كل حاجة.
- ليه خبيت علىَّ؟، رغم أن اللي حصل بينك وبين علا، يخص حالتك، اللي أنا مسئول عنها. وكان مهم أني أعرفه منك.
- سامح أنت كلمت علا، عن الحالة اللي عندي، حالة النسيان، والأحداث اللي بكملها في خيالى، ومش بتكون حصلت في الحقيقة.

- لا طبعا.. أنت عارف أن ده مش ممكن، ما ينفعش أسرار المرضى تطلع لأي حد.
- يبقى كل التخمينات اللي وصلتلها، طلعت غلط. لو مها طلبت من...
- أنت بتكلم نفسك؟!
- خليك معايا يا سامح.
- لو قلنا إن علا ما تعرفش طبيعة الحالة اللي عندي، ومها عرفت اللي حصل بنا في إسكندرية، وطلبت من علا تبعد عنى. افتكرت.. مها اليومين اللي فاتو كانت دايمًا تقولى أني بحبك وهحافظ عليك. وعلا عشان تحافظ على علاقتها مع مها، كان لازم تضحى بعلاقتها بىَّ، فحاولتْ توهمنى أن ما فيش حاجة حصلت بنا وأن قعدتها جنبى في القطار حاجة ما حصلتش. لكن أيــه اللي هايخلى علا تفتكر أني ممكن أصدقها، لو هي ما تعرفش بطبيعة الحالة اللي عندي؟ فكر معايا يا سامح.
- الموضوع مش محتاج تفكير أنا هحكيلك على كل حاجة.
- أنت عارف الحقيقة كاملة بقي؟
- أيوه.. هحكيلك الموضوع من أوله، لحد الساعة اللي احنا فيها.

وبدأ سامح يأخذني في رحلة كشفت لي كل شيء، عرفتنى بأسرار اللعبة التي اختلطت علىَّ أحداثها فضاعت مفاتيحها، وتشوشت حياتى في مجموعة من اللحظات فقدتْ فيها السيطرة على مُجريات الأمور. وأعتقد أنني خرجت منها خاسرًا، والغريب أن أطراف اللعبة، ظلوا يلعبون بلا ضمير، حتى النهاية.

لم تصل بي أفكاري وأنا أخطط ألعابي إلى هذا المستوى الإبليسي، لم تكن ألعابي في الماضي، تتعدى مجرد، الفوز بقلب امرأة جديدة، أو كسب تفاوض بخصوص عقود واتفاقيات العمل، لكني لم أكسب أبدًا وأنا أتربع فوق جثث وجروح الآخرين.. ربما إحدى اللاتي دخلن معي في علاقة حب دامت أياما أو شهورا، لم يكن يروق لها أن تعيش معي هذه العلاقة على طريقة اللحظات التي تبدأ وتنتهي لتتجدد مع علاقة جديدة. وفطنت إلى أنني بذلك أكون قد خدعتها، وكانت تفضل لو أنها تعيش معي قصة حب تدوم عمرًا، لكنها لم تكن تعرف أن العمر عندي هو هذه اللحظة التي تنتهي، لتولد لحظة جديدة.

تركت سامح يحكي تفاصيل اللعبة.. فقد كان الدافع الرئيسي الذي جعل مها تبدأ لعبتها، هو أنها كانت متأكدة من أنني لم أعد كسابق عهدها بي.. ذلك الفارس الذي يقيم المراسم كل يوم من أجل تنصيبها ملكة، ثم يدور في فلكها وحول عرشها، من أجل إرضائها. فكيف كنت سأفعل هذا وأنا لم أعد أحصل منها على رحيق المرأة، الذي كان يتفجر بداخلها قبل أن أتزوجها، فلماذا إذن أمنحها ما تريد؟، فمنعتُ عنها اهتمامي، ولم أعد أشعرها بأنها الملكة المتوجة على كل دنيتي، وأنها الساحرة التي إذا مدت عصاها السحرية إلى أي منطقة في حياتي لجعلتها جنة، وكانت هي شجرة الحياة التي في وسط الجنة. فأنا أعرف كيف أرفع الملكات إلى عروشهن، وكيف أنزلهن عنها، هذه لعبتي وأنا أجيدها، مع كل النساء.

كانت العلاقة بين مها وعلا، قد توطدت، بعد أن ساعدتها مها على إنهاء إجراءات التقدم لنيل درجة الماجستير، وإيجاد عمل، يرتبط بدراستها، وكان ذلك في عيادة الدكتور سامح. ولأن مها خبيرة بطبائع البشر، وخبيرة بتفاصيل طبيعتي أنا على وجه الخصوص، ومعها مفاتيح شخصيتي.

وأيضًا بعد أن فطنتْ إلى حالتي المرضية، عن طريق ملاحظتها لتصرفاتي، وبما قدمته لها من عطايا مجانية تمثلت في أسرار حالتي المرضية التي كاشفتها بها، خلال المرات القليلة التي كنت أفتح فيها مخابئي وأحكي لها عن بعض المواقف التي وجدتُ فيها حرجا مع أناس قابلتهم في عملي أو في علاقاتي الشخصية، بسبب حالة النسيان التي تمر بي هذه الأيام. فاستطاعت بحكم دراستها، أن تبني على ما قلته لها، فاستنتاجاتها التي كان من المحتم أن تصل إليها حالتي المرضية في القريب العاجل. كانت تعرف أن حالتي ستمر بمرحلة Confubulation هذه الحالة التي تجعلني أرى أحداثا وهمية تملأ الجزء المفقود من الذاكرة، وأصدقها على أنها حدثت في الواقع. وربما كانت هذه المرحلة المتطورة من حالتي فعلت فعلها أمام مها؛ التي تفهمتها، قبل أي أحد، ورتبت أوراق لعبتها على أساسها، ثم وضعت قواعد اللعبة، وحركت اللاعبين، وبدأتْ في تحريكنا دون أن نعلم بموعد البداية التي كانت في محطة القطار حين خططت سفر علا في نفس القطار الذي سافرت فيه إلى الإسكندرية. لقد قدمت لها معلومات مجانية، وقَرتْ عليها الوقت والتفكير. فتذكرت ما كنت أقوله دائمًا لنفسي، ولآخرين، وهو أننا حين نطرح التفاصيل كعطايا مجانية؛ فإننا نمنح حتى الأغبياء فرصًا هائلة للإيقاع بنا.

كانت تعرف أنني بحاجة إلى حب جديد، وامرأة جديدة، تدخل حياتي، حتى تعود إليَّ الحياة التي فقدتُ ملامحها، وحين تعود إلى الحياة، فسأعود لها، كما تريدني وكما عرفتني، خادم المملكة الذي يرفعها فوق العرش بعد أن رصعه لها بقطع ثمينة نادرة من العاطفة والشعور الجميل، في الوقت التي بخلت هي فيه بكل شعور جميل يشتاق إليه وهو يمر بأزمة منتصف العمر.

رتبت مها أن تتقاضى أتعابها عن الخدمات التي قدمتها معروفًا مدفوع الأجر من أجل علا، وشرحت لها كيف أن حياتنا الزوجية، تحتاج إلى لعبة وأن هذه اللعبة لن تضر أحدًا، ولكنها ستعود بي إلى جنتها. فقبلت علا.. ثم وضعتها في طريقى.. سافرت في نفس القطار، ولم يكن وهمًا، ولا قصة خلقتها أوهامى، جاءت وطلبت من الراكب الذي بجانبي أن يبادلها بمقعده، وجلست معى، وصنعنا معًا أحداث هذه اللحظة الجميلة التي كنت أطاردها منذ وقت بعيد، ومؤخرًا أمسكت بها في القطار. ثم في الإسكندرية، في لقاءنا المجنون؛ الساحر، الذي كان حقيقة، أثبتها سامح الآن. وبعد أن عادت علا من رحلتها، استكملت مها خطتها، وزارتها في منزلها، لتطمئن إلى أن خطتها ستسير وفقًا لمساراتها، حتى تكتمل المرحلة الأخيرة منها، جيم أوفر.. وتكسب مها، وربما ظنت أنني سأكسب معها. لكننى خسرت:

- معقولة مها هي اللي رتبت كل ده.
- الغاية تبرر الوسيلة.. كانت عايزه تحافظ على بيتها
- منتهى الأنانية منها.. لعبت بىَّ
- ناوى تعمل أيــه؟
- مش عارف، لكن أنا أتعلمت أرد على المشاكل، بإجراءات، لازم إجراء يضمن أن المشكلة تتحل، وأنها ما تحصلش تانى.
- (سكتُ برهة، ثم أردفتُ أقول)
- وحادثة الأسانسير مها هي اللي دبرتها؟
- ضحك سامح وهو يقول: ده كدا بقى فيلم عربى.. لا.. حادثة الأسانسير من ترتيب خيالك أنت عشان كدا لازم تكمل جلسات العلاج، وتاخد الدواء في مواعيده.

- وعلا.. ما كُنتش أفتكر أنها شاطرة كده في تمثيل دورها معايا.
- على فكرة علا اعترفت لي بحاجة، ما كنتش عايز أقولهالك، لكن لازم تعرفها، وبعدين خد قرارك براحتك.

أخذنى سامح، وأبحر بقرب شواطئ الماضى، عندما جاءته مها زوجتى، وفي صحبتها علا، الفتاة الإسكندرانية، التي تخرجت في كلية التربية، قسم علم النفس. والتي كان مجيئها إلى القاهرة ليس لدراسة الماجستير والعمل فقط، وأنما السبب الحقيقى الذي جاء بها، كان هروبهًا من تجربة عاطفية استمرت خمس سنوات.. ثم بخطبة لم تستمر أكثر من ستة أشهر. بعدها جاءت إلى القاهرة، وسكنت مع محمد أخيها، في القاهرة. كانت علا تتقابل مع مها، في أوقات ومناسبات متفرقة، للتسوق، والتنزه، وكثيرا ما كانت علا تزورها في منزلها، ولأن مها خبيرة في التعامل مع الناس، استمعت لمشكلة علا، وتعاطفت معها، وعرفت أنها تحتاج لمن يملأ لها الفراغ العاطفى، الذي سببه سفر خطيبها، وتخليه عنها، وعن مستقبل علاقة لم يتوفر لها أسباب البقاء. وبدأت علا ترتاح إلى مها، وتثق فيها.

فى نفس الوقت كانت مها قد بدأت تتأكد من أنني أصبحت مثل ذكر البط الذي لم ينجب أطفال، ولم يعد يشغل حيزًا من الفراغ داخل المنزل، على الرغم من وجوده بالمنزل طول الوقت. فخططت لعبتها، لاستعادة ذكر البط إلى حظيرتها، وجعله يلفْ حولها، ويذكــَّر بحمدها. وكانت تعرف عنى بما لا يقبل الشك، أنني لا أمنع مشاعري عن التدفق في أمواج نهر محفور في أرض جديدة، وهذه الأرض الجديدة، كانت علا.

بدأتْ مها تحاصر مشاعر علا بقصص عن علاقاتى القديمة. وتقرأ عليها أشعاري التي كنت أكتبها من سنوات، أشعاري التي لو حاولت أن أكتب مثلها في هذه الأيام لامتنعت علىَّ الكلمات. وكانت مها تشرح لها التفاصيل

التي تحكي كيف أقع في الحب، وكيف أعيش اللحظة، وما هي طريقتى في إعطاء طابع فلسفى لمشاعري. عرفتْ كيف تقدمنى لها كبديل مناسب لملء الفراغ الذي يجتاح مشاعرها المجروحة، ورسمت في خيالها صورًا للفارس النبيل الذي سيخلصها من قلعة الحرمان المحبوسة بداخلها، شجعتها، وكانت علا لا تشك في نية امرأة تحدثها عن زوجها. وفي الوقت الذي تأكدت فيه أن علا مستعدة للوقوع في الحب، عرضت عليها، تفاصيل اللعبة، وطلبت مساعدتها، بحجة رغبتها في الحفاظ على بيتها، ولإعادة زوجها، لطبيعته التي كان يتألق فيها بمشاعره الجميلة، وحتى يعود لها كما كان في أول أيام زواجهما، ذلك الفارس الذي يبنى ممالك الحب، ويتوج ملكات الإحساس الرقيق. توسلت مها إلى الدوافع النبيلة عند علا، التي توسلت إلى نفسها، لتشارك فارس المشاعر، قصة عشق تعرف أنها ستنتهي سريعًا. ولكنها لن تحرم نفسها بعض اللحظات الرائعة، التي عُرضت عليها، كمنحة بلا ثمن. هكذا فسرت لنفسها العرض الذي عرضته عليها مها، فقبلته بلا مقاومة يفرضها عقل أو منطق. وبدأت اللعبة، ولأنها بدأت كان يجب أن تنتهي. ودائمًا يضع لنا منطق الأشياء نهاية حتمية، ومقبولة لكل بداية بشرية.

أفقت من سيطرة الصور التي أرسمها للمواقف التي دارت بين مها وعلا، بمساعدة صوت سامح الذي كان ينقل بكلماته صورًا واضحة إلى مخيلتى، ويضعنى بداخل الأحداث التي يحكيها. وعاد سامح الذي كان يجلس على طاولتى المستديرة في جزيرة المعادى يتكلم وقد قبض على وعيي وهو يقول:

- علا أكدت لي أنها ارتبطت بك، وأن اللي حصل بينكم في إسكندرية، أكد لها أنك الوحيد اللي ممكن تملىء حياتها، وده خلاها لما رجعت من

السفر، ترفض تكمل في لعبة مها، ولما مها ما وصلتش معاها لحل في التليفون، راحت لها البيت عشان تجبرها تكمل معاك لعبتها.

وبدأ سامح يحكي لي تفاصيل ما دار بين علا ومها، عندما ذهبت إليها في منزلها، لما أحستْ أنها فقدت الحيلة لإقناعها -فى التليفون- أن تستمر في تنفيذ خطتها. تذكرت الآن أن مها كانت هي الضيفة التي حلت على علا في منزلها، وقطعت الاتصال التليفونى الذي دار بيننا، والذي كنت أحاول فيه إقناعها بمقابلتى.

فتحت علا الباب، فوجدتْ مها أمامها، بوجه جامد لم تعهد ملامحه من قبل.

- اتفضلي!
- أنا ما عنديش وقت، همه كلمتين يا علا.
- مش ها نتكلم واحنا واقفين يا دكتورة.. اتفضلي!.
- بعد أن جلست في مقعدها قالت بثقة:
- أنت عارفة أنك لازم تكملى.. ما ينفعش تختفي بعد اللي حصل.
- يعني إيــه؟
- يعنى أنت ها تكملى الحكاية، إما تفضلى حبيبته، وإما تقنعيه أن ده ما حصلش، لكن تختفي كدا، يبقى أنت أكيد عايزاه يدور عليكي.
- دكتورة أنت بدأتِ تهينينى.. أنا لما وافقت ألعب معاك لعبتك، كنت عايزه أرد لك جميلك.
- وأيــه اللي غيَّر الموقف؟

- مش قادره أخدعه، بعد ما عرفته على حقيقته، واحترمت فيه حاجات حضرتك مش قادره تشوفيها، أنه إنسان مبدع، وبيحاول يبدع حتى في إحساسه بالحياة، وبيحولها لمجموعة لحظات جميلة، لا فيها قيود ولا عقبات. أنت ما فهمتيش فؤاد يا دكتورة.
- واضح أنك أنتِ اللي فهمتيه في كام ساعة عشتيهم معاه.
- أنا بكلمك من قلبى، حاولى أنك تقوليله الحقيقة، أكيد هيفهم نيَّتك. ويصدقك.
- أنت حَبِيتى فؤاد يا علا.. أنا أعرف أقرأ الست اللي قدامى كويس.
- أنت بتقولى أيــه.. لا طبعا.. أنا راجعة إسكندرية.
- براحتك، بس مش لازم تهدمى حياتى.
- أنا ها أعمل اللي أنتِ عايزاه، أنت فضلك عليَّ.. والأستاذ فؤاد مسيره يفهم ويسامح.
- بس لازم الحكاية تنتهي زي ما رسمتها، أنتِ لازم تخرجى من حياته بطريقتى.
- إزاي؟
- أنا لازم أشوفكم مع بعض، وأثبت خيانته، عشان يرجع لي وهو نادمان، ويفضل طول عمره يكفر عن ذنبه، وأنا من كرم أخلاقى وحبي أسامحه على اللي عمله.
- لكن ده فيه إهانة ليَّ، وله هو كمان. وأنا ما أقبلش كدا.
- سهام ها تقول أيه، هيَّ وجوزها لما يعرفوا الحكاية؟
- أنت بتهددينى يا دكتورة؟

- طبعا لا.. لكن أنا مضطرة أدخلهم في الموضوع، أنا عاملة حسابى على خطة بديلة، واللعبة لازم تكمل، وأنا هخرج منها كسبانه، خليكِ معايا عشان تكسبى.
- أنا معاكِ يا دكتورة.. مضطرة أكمل معاكِ.. لكن أنا لازم أرجع إسكندرية بسرعة.
- على راحتك.. أنا همشى دلوقت، وهستنى تقوليلى عملتِ أيــه.. عشان أقولك هنكمل إزاي.. سلام.
- شرفتى يا دكتورة.. مع السلامة.

كان سامح يجلس أمامي في حديقة جزيرة المعادى، يحكي، وأنا أرسم صورًا للقاءات والحوارات التي يحكيها، وأحرك أبطال الحوار في مخيلتى، وأتصور انفعالاتهم، وأشعر مشاعرهم، فمن أسلحتى التي أعتز بها، هو قدرتي الفائقة على تخيل الصور بالحركة والإحساس.

عقارب الساعة تستعد لتعبر فوق التاسعة من مساء اليوم. كنا قد تناولنا مشروباتنا، وبدأ سامح يجهز نفسه، لإنهاء اللقاء بيننا. فجلس وهو يراقب ساعته، ويعتدل في جلسته ليلقى نظرة نحو الممر المؤدي إلى باب الدخول، كأنه ينتظر أحدًا.ثم أقبلتْ نحونا بخطوات رشيقة، رأيتها وتتبعت حركتها من قبل.. ولكن خطواتها هذه المرة كانت بطيئة وحذرة.. أنها علا.. تقترب من مجلسنا. لم أعطِ اهتمامًا.. وقف سامح واستقبل ضيفته التي رتبت معه المجيئ إلى هنا في هذه الساعة، بعد أن مهد لها جوًا، تستطيع أن تلتقط فيه أنفاسها. جلستْ إلى الطاولة التي نلتف حولها وعلى مقربة منى، ثم رفعتْ رأسًا ثقيلة، وقالت بكلمات قيدتها مشاعر خجلة، أنها جاءت لتودعنى، قبل سفرها إلى الإسكندرية، ولن تنسى أنها عاشت معي

اللحظة الرائعة التي كنت أحدثها عنها. وتثق أن هذه اللحظة لن تتكرر مرة أخرى في حياتها. نظرتُ إليها.. أستمع إلى كلماتها، بنصف اهتمام، فمن الصعب أن أغفر، وإن غفرت بعد زمن، فلا أنسى. أعترف بضعفى، وأطلب إلى الله، أن يمنحنى نعمة الغفران، ونسيان الإساءة، ولكني أعترف بأننى محروم من هذه النعمة، وأعانى الشقاء، بسبب الموقف المتجهم الذي اتخذه ضدهم، وفي الوقت ذاته، أفرض على نفسي بسببه، حصارًا شعوريًا يباعد بيني وبينهم؛ هؤلاء الذين بقصد أو بدون، يخطئون إلىَّ.

أن اللحظة التي ولدناها من خلايا شعورنا الجميل، أنا وعلا، كانت قد انتهت. واستنفذنا طاقتها، وجاء الوقت لنموت على الأطراف الأخيرة لهذه اللحظة.. فنهاية كل شيء قد أتت، واللحظة الرائعة، تسافر في الماضى وتسقط في مخازن الذكرى؛ باهتة ضمن كراكيب كثيرة.

تركنى سامح، وكان من اللائق أن تنسحب علا من الموقف ومن حياتى كلها، فوجدَتْها فرصة أن تخرج من جزيرة المعادى بصحبة سامح، الذي كان ماهرًا في عرض قصتها وقصتى، بالقدر الذي جعلنى، أقف هادئًا في مواجهة سنوات طويلة، هذا قدرها، أحببت فيها نساءً كثيرات، ولعبت ألعابًا بعدد الأيام، كسبت وخسرت، لملمت حصادًا كبيرًا من الأفراح والأحزان. فهل كانت فلسفاتى في الحياة، في حاجة إلى تعديل أو حتى إلى تغيير شامل؟. فمن يستطيع أن يقيَّم، ويكون على صواب؟، ويقرر وهو يضمن نتائج المستقبل؟ ومَن يستطيع الآن، أن يقف عند مفترق طرق ويختار، يختار للمستقبل؟، لا أن يعود إلى الماضى ويغير اختياراته، فهناك حائط يرتفع عدة ألاف من الأمتار، بين الماضى الذي ابتلع لحظاتنا التي عبرت، وبين الآن الذي نتنفسه، ولن نملك أي قدرة لنغير شيئًا في لحظة واحدة عبرت حدود الماضى، ولكن السؤال الذي يتحتم أن نسأله، هل نملك

القوة، لنقف بصلابة جيش عنيد ونختار؟. نختار للمستقبل، فالمستقبل يولد من رحم لحظة اختيار. وربما كانت كل أخطاءنا أننا لم نختار، بل أننا كنا مجبرين على كل اختيار.

الساعة العاشرة من مساء يوم، أسدل ستائره، على حياتى مع مها، فقد قررت أن ألملم كل سنواتى معها، وأودعها مخزن كراكيب جديد، فقد كنت لا أنتوى العودة إلى منزلنا الذي جمعنى أنا ومها طوال ست سنوات مضت. سأترك لها المنزل، حتى لا تضطر في يوم من الأيام إلى حيلة شريرة، لتستعيده وتدمرنى، بدافع حفاظها المريض على مقتنياتها، والتي من المحتم أن هذه المقتنيات ستصبح في يوم من الأيام، وهذا اليوم سيأتى قريبا أو حتى بعد سنوات كثيرة، وتتحول المقتنيات العزيزة والقيَّمة إلى كتلة باهتة الألوان نطلق عليها، كراكيب.

كنت ما زلت في حديقة جزيرة المعادى، أسترجع الماضى، أحكم عليه، وأمنحه الفرصة ليحكم فىَّ.. لحظات كنت فيها شاردًا، غير مستقر إلى شاطئ، وعقب لحظة شرودى، اعتدلتُ في جلستى، ثم وقعت نظراتى عليها، راقبتها، كانت تتحرك بطاقة امرأة مسحورة، تحول المكان بفعل طاقتها إلى محفل كبير، أشعر وكأن أرواح أناس كثيرين عاشوا منذ ألاف السنين، انطلقت في المكان. ترقص وتغنى على نغمات ضحكاتها الصاخبة، التي اغتصبت منى ابتسامة عريضة، قد تصبح بعد لحظات ضحكة كبيرة.. كانت تمسك في يدها، بكاميرا للتصوير الفوتوغرافى. اقتربتْ منى.. استأذنتْ في أخذ صورة لي وأنا متكور على مقعدى في وضع الاستغراب، أجبتها لطلبها. التقطت عدة صور، بزوايا مختلفة، وكانت تتوقف بين لقطة وأخرى لتعرض علىَّ لقطتها وتأخذ رأيىْ فيها. قفزت في المقعد الذي أمامي، ثبتت قدميها في بطنه، والتقطت صورة

لوجهي وأنا أرسم ضحكة متجهمة، فُرضت علىْ بالقوة، أعجبتها هذه اللقطة، وسقطت بعدها بداخل المقعد، ثم عادت بظهرها إلى الوراء والتصقت بالمسند، وفردت قدميها حول طاولتى، وبصوت مجهد رشيق، قالت أنها ستمنحنى خمس دقائق أكون في شرف استقبالها على طاولتى، حتى تنتهي من تناول مشروبها الساخن الذي سأتكرم بدعوتها عليه. مبررة موقفها، بأنها ظلت لأكثر من ساعتين تدور على أقدامها، لتلتقط صورًا لأماكن ووجوه تنم ملامحها عن غرابة أو طرافة، من أجل عرضها على صفحتها في الفيس بوك. أعتدلتْ في جلستها، وأمسكت الكاميرا التي أطاعتها، وفتحت شاشتها، لتعرض علىَّ مرة أخرى الصور التي التقطتها لى.. توقفنا أمام صورة، شعرتُ أنها التقطتها لروحى وليست لوجهي، كان طابع الأحداث التي مررت بها وظننتها سقطت في أقرب بئر للماضى، تفرض نفسها على الصورة، فسألتني عن عنوان أحب أن أعطيه للصورة، درت في جنبات عقلى، وعدت لها باسم، سبقته ابتسامة كبيرة، قبل أن أنطق به.

كان الاسم الذي اخترته للصورة هو... (ذكر بط).

استغربتْ لعنوان الصورة، ولم أرد أن أزيل عن هذا العنوان غرابته، فالتقطتُ أطرافًا جديدة للحوار بيننا، وسألتها عن طبيعة عملها، فقالت أنها تراسل عدة صحف ومجلات. ولها صفحة على الفيس بوك ومدونة، وتعشق التصوير الفوتوغرافى.

فتاة غريبة ومنطلقة، في الثامنة والعشرين، عيناها تستفز وقارك، وتقتحمك فيسقط سياجك، ويذوب جمودك، وتجد نفسك مطيعًا تلبى لها ما تريد.

- اسمك إيــه؟
- سندريلا عشرين.. عشرين.
- يعنى أيــه؟
- أنا سندريلا الجديدة. سندريلا ٢٠٢٠.. سندريلا فوتوغرافي.
- كل ده اسم
- ده اسمى على الفيس بوك.. أنا هضيفك على الأكونت بتاعى.
- أوكيه.. فرصة عشان أقدر أتواصل معاكِ
- وأنت اسمك إيــه على الفيس بوك؟
- أنا هعمل أكَونت جديد.
- هتسميه إيــه؟
- دكر البط عشرين عشرين.
- بس بقولك إيــه.. أنا ممكن أضيفك النهارده، وبعد كام يوم يمكن أعملك بلوك.
- ليه كدا.. ما تخلينا أصحاب على طول.
- لا يا سيدي.. أنا بحب أعيش اللحظة، وهُبَّة اللحظة تخلص، كل حاجة تخلص معاها.. ما تقوم نروح ركن الشيشة.. ليك في الشيشة التفاح؟

ضحكتُ وضحكتْ سندريلا ٢٠٢٠.. ضربتُ كفًا بكف، ونظرت إلى السماء كأني أقدم الشكر الى الله، لأنه استجاب إلى طلباتي.. أخيرًا وجدتُ مجنونة، تؤمن مثلى بأن الحياة لحظة.. نولد عند بدايتها.. ونموت على أطرافها الأخيرة.. وعلينا في كل لحظة أن نختار. والغريب في الأمر أنك مجبر على أن تختار. فالمستقبل لا يولد إلا من رحم لحظة اختيار.

تمت بحمد الله

أشرف سمير عدلى

Proof